أحمد محمد عطيه

اقرأ

حرب أكتوبر في الأدب العربي الحديث



اقرأ
تصدر أول كل شهر
[٤٨٠] أكتوبر - ١٩٨٢

رئيس التحرير أنيس منصور

أحمد محمد عطيه

حرب اكتوبر
فى الادب العربى الحديث



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الأدب العربى وحرب أكتوبر

منذ فجر التاريخ الإنسانى ، رافق الأدبُ الحرب وتبادلا التأثير والتأثر . فكان الأدب ضروريا للرؤيا والتنبؤ والحماسة للحرب ، وأثْرت الحرب الأدبَ بأعمال عظيمة على مستوى الشكل والمضمون : -

فقد أنضجت حرب البسوس العربية ، التى وقعت بين أواخر القرن الخامس الميلادى وأوائل القرن السادس بين قبيلتى بَكر وتغلب واستمرت نحو أربعين سنة ، الشعرَ الجاهلى وحققت للقصيدة العربية صورتَها الفنيّة المعروفة ، كما ظهرت فى قصائد المهلهل بن ربيعة فارس تلك الحرب وشاعرها الأول . وأبدعت حروبُ العرب فى الجاهلية « أيام العرب » ، ذلك الأدب النثرى الذى نتج من وصف المعارك ورواية أحداثها ، وخلد أبو تمّام فتح عمورية ، وصاحبت قصائد المتنبى حروب سيف الدولة بتصويرها بطولات الحروب ووقائع المعارك ، وتقديم النماذج

البطولية التى حرّكت الناس ودفعتهم للمشاركة فى تلك الحروب ، وشجعت سيف الدولة على المضى فى طريق حروبه التحريرية ضد الروح .

وألهمت حروب طروادة ، التى وقعت بين مدينة طروادة وجاراتها قبل تسعمائة سنة من بدء التاريخ الميلادى ودامت نحو قرن كامل ، الشاعرَ الإغريقى هوميروس ملحمته الشهيرة « الإلياذة » ، وأنتجت الحروب الحديثة روايات « الحرب والسلام » لتولستوى ، الدون الهادئ « لشولوخوف ، « وداعاً للسلاح » ، لهيمنجواى ، « الأمل » لمالرو ، « العاصفة » لأهرنبورج ، « صمت البحر » لفيركور ، « أفول القمر » لشتاينبك وغيرها . كما أسهم الأدب فى حروب المقاومة الفرنسية ضد النازيين ، والمقاومة الفيتنامية ضد الفرنسيين والأمريكيين ، والمقاومة الجزائرية ضدّ الفرنسيين ، والمقاومة الفلسطينية ضد الصهيونيين .

أما حرب أكتوبر ، أعنف الحروب العربية الحديثة وأكثرها تعبيراً عن قدرات الإنسان العربى وإمكانياته ، فقد فاجأت الجميع ، الأعداء والأصدقاء ، الخارج والداخل ، فإذ كانت قد أصابت جبهة الأعداء بالانهيار لدى المواجهة الأولى ، فقد أشعلت جبهة الأدباء العرب حماساً وانفعالاً ، فجاءت أعمالهم الأولى عفويّةً انفعالية تحفل بالانطباعات السريعة وليس بالإبداعات الفنية والأدبية . فقد فوجئ الأدباء العرب بحرب أكتوبر ، وتمثلت المفاجأة فى نوعيّة التعبير الأدبى عن المعارك ، فقد سيطر عليها طابع السرعة والعجلة ، لذا جاءت الأعمال الأدبية الأولى فى شكل مقالات قصيرة أو قصائد وقصص قليلة ، إذ سيطر المقال على أعمال كبار أدباء القصة والرواية والمسرح بل وعلى بعض الشعراء ، وهى مقالات قصيرة فيها من التلقائية والعفوية والانطباعات السريعة أكثر مما تحتويه من الإبداع الأدبى والفنى فى تخصصاتهم الأدبية والفنية . ولكنها تميّزت بالوعى والنضج والإحساس بأهمية حرب أكتوبر ، ذلك الحدث العظيم البارز فى تاريخ الحروب

العربية الحديثة . وعبرت عن الترحيب الجماعى العربى بالحرب . كما ترجمته كتابات الأدباء العرب فى كل أنحاء الوطن العربى وأقطاره . فزالت الحدود والخلافات . وعزف الجميع لحن التأييد والتمجيد لحرب أكتوبر . ووجدوا فيها بعثاً جديداً لأمتنا العربية وتجسيداً لإمكانيات الإنسان العربى وأصالته وقدراته على الفعل وتجاوز الهزيمة . مهما تكن نتائج الحرب . فإقدامُنا على خوض الحرب رأى فيه الجميعُ مجداً وانتصاراً عظيمين .

فتوفيق الحكيم . لم يبدع رواية أو مسرحية . ولكنه اكتفى بمقالته الشهيرة « عَبرنا الهزيمة » ، التى صارت مدخلاً للكثير من أناشيد وأغنيات الحرب . ورأى الحكيم فى العبور تأكيداً لأصالة شعبنا وعبوراً للهزيمة التى بداخل نفوسنا . قائلا : عبرنا الهزيمة بعبورنا إلى سيناء .. ومهما تكن نتيجة المعارك فإن الأهم الوثبة .. نعم عبرنا الهزيمة فى الروح « ثم أعلن الحكيم عن عجز الأديب عن إبداع عمل بمستوى الحرب ، ووصف الأدب بأنه « كلام على ورق » . وطلب من الدولة أنَ توفر له فرصة عمل يدوىّ فى مصنع إمدادات أو معلبات .

أما نجيب محفوظ ، فقد أبدع أكثر من رواية وقصة بعد حرب أكتوبر . ولكنها لا تدخل فى أدب أكتوبر . وتوقف إسهامه الأدبى فى الحرب عند مجموعة مقالاته القصيرة جدًّا . التى كتبها بالأهرام خلال الحرب وبعدها بعنوان « دروس أكتوبر » . أشهرها مقالاته « عودة الروح » . التى قال فيها : إن الحرب ردّت إلينا الروح وفتحت أبواب المستقبل « مهما تكن العواقب » ؟ : « . . ردّت الروح بعد معاناة الموت ست سنوات . روح مصر تنطلق بلا توقّع . تتعملق وتحلق بلا مقدمات . تتجسد فى الجنود . بعد أن تجسدت فى قلب ابن من أبر أبنائها . تقمص فى لحظة من الزمان عصارة أرواح الشهداء العظام من زعمائها واتخذ قراره .

ووجه ضربته .. فإلى الإمام . ومهما تكن العواقب . فقد ردت إلينا الروح والعصر والمستقبل » .

هذا هو موقف توفيق الحكيم ونجيب محفوظ فى أدب أكتوبر ، فلا إبداعات أدبية أو فنية بل كتابة مقالات سريعة معبرة . وهو نفس موقف يحيى حقّى وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف إدريس وغيرهم من كبار الأدباء . بل إن شاعرا كبيراً كنزار قبانى لم يكتب شعراً فى حرب أكتوبر ، بل كتب مقالات عبر فيها عن تضاؤل دور الكلمة أمام فعل الحرب . ولكنه لم يقلل من شأن الكلمة بل دعا الأدباء إلى المشاركة فى الحرب بأقلامهم وأوراقهم . فكتب مقالة بعنوان « دعوة عاجلة لاحتياطى الأدب » بمجلة « الأسبوع العربى » البيروتية قائلاً : « عندما تبدأ آلة الحرب بالتحرك تصبح آلة الأدب فى مرتبة ثانوية . وليس هذا انتقاصا من منزلة الأدب ، بقدر ما هو محاولة لتقييم الأشياء بحسب مردودها فنتائجها المباشرة . إن العمل الأدبى بطبيعته يحتاج إلى حد أدنى من الصبر والنضج والتخمر ، بينما لاتحتاج الرصاصة إلا للمسة أصبع لتنطلق من ماسورتها . ومن هنا يتضح أن منطق المسدس هو غير منطق القصيدة إن عبور قناة السويس مثلاً . كان يعتمد بالدرجة الأولى على لعبة الزمن وهو فى الحروب المعاصرة يحسب بالثوانى . فى حين أن كتابة رواية عن العبور العظيم قد تستغرق أشهراً بل سنين لتكون بمستوى هذا العبور الأسطورى .. وإذا كانت الدول العربية قد استنفرت جيوشها ، ودعت احتياطيها خلال ٤٨ ساعة ، فإن على ضباط الأدب العربى واحتياطيه وقدماء محاربيه . أن يتجمعوا هم أيضاً خلال ٤٨ ساعة ومعهم أوراقهم الثبوتية وأقلامهم .. ووطنيتهم .. » .

وقال نزار قبانى فى مقالة أخرى بعنوان « يموتون عن العرب بالوكالة » لقد فتح المصريون والسوريون أمامنا الضوء الأخضر ، وصحّحوا ثورة المقاتل العربى فى

ذهن العالم ، وثقبوا بالون الغرور الإسرائيلى ، واستطاعوا خلال الساعات الأولى من المعركة أن يجرحوا الذئب ، ويقتلعوا بعض أسنانه ... » وأضاف نزار فى مقالة ثالثة عنوانها « وجهى .. وجواز سفرى » : « .. أنا ولدت تحت الطوافات والجسور العائمة التى علقها مهندسو الجيش المصرى على كتف الضفة الشرقية ، وخرجت من أسنان المجنزرات السورية التى كانت تقرقش الصخور فى مرتفعات الجولان .. » .

هكذا شارك الشاعر نزار قبانى فى تمجيد حرب أكتوبر بمقالاته المنشورة بمجلة « الأسبوع العربى » البيروتية ، ووجد فى تلك الحرب ميلاداً جديداً وبعثاً جديداً له وللإنسان العربى فى كل مكان . وإلى نفس المعنى ذهب الأدباء العرب على امتداد الوطن العرب من المغرب إلى اليمن ، ممجدين تلك الحرب العربية العظيمة ، فأسماها الأديب الليبي أحمد إبراهيم الفقيه « حرب الكبرياء » وقال فى مقالة ، بصحيفة « الأسبوع الثقافى » الليبية ، تحمل نفس العنوان : « ليس مهما ماتحققه الحرب من نتائج بعد اليوم .. فلقد أدّت هذه الحرب نتيجتها منذ أول يوم ، لقد كانت حرباً من أجل الكبرياء .. وليست مجرد حرب لاسترداد الأرض أو ردْع العدوان أو الدفاع عن حق مغتصب .. » ولا يتسع المجال لعرض كل ماكتبه الأدباء العرب من مقالات تمجيداً لحرب أكتوبر ، لاسيّما وقد ضمته مجلة « الآداب » اللبنانية فى عدد ضخم ممتاز بعنوان « أدباؤنا فى المعركة » صدر فى شهر يناير ١٩٧٤ . ولكنى أردت بهذه النماذج إثبات الحماس العربى والتمجيد العربى لحرب أكتوبر ، وأن قيام الحرب لم يصاحبه أدب إبداعى عربى بمستواها بل انعكست الحرب فى مقالات سريعة ومباشرة .

هكذا اقتصرت كتابات الأدباء العرب خلال حرب أكتوبر وفى أعقابها على المقالات . فبدأ تخلّف جبهة القول عن جبهة الفعل . وكأن الكلمة لم ترق إلى مستوى العمل والقتال والنضال إلا من بعض القصائد الشعرية واللوحات القصصية

وهذا طبيعى ومنطق لأن الكلمة تهيئ للفعل ولا تحل محله . ولأن الإبداع الأدبى والفنى المركّب يحتاج إلى ما هو أكثر من الشعورية والانفعال المتحمس . فهو قد يبدأ من لحظة حماسة ، ولكنه لكى يتم التركيب الفنى لابد من عمل منظم وعقل بارد مصمم . فكيف يتأتى هذا مع اشتعال الحرب التى انتظرناها طويلاً وتمنيناها كثيرًا ومع ذلك فقد فاجأتنا جميعًا . ولعل قِصر مدة الحرب حرم الأدباء من معايشتها وإمكان كتابة أعمال كبيرة عنها ، كما أن تفاصيل المعارك لم تكتب بشكل تسجيلى كامل لتحفظ كوثائق ومصادر للأعمال الأدبية الكبرى . لهذا جاء أدب أكتوبر فى شكل أعمال أدبية محدودة برز فيها الشعر والقصة القصيرة . وتأخر ظهور الروايات وقل عددها ، وهذا لأن الرواية فن مركب يتطلب الكثير من الوقت للإبداع والنشر والتقديم للجماهير . بينما الشعر والقصة القصيرة هما الأسرع فى الاستجابة للأحداث والتعبير عنها . فطبيعة معمارهما الفنى البسيط وسهولة نشرها تجعلانهما من فنون التعبير اللحظية والآنيّة .

إن حرب أكتوبر هى أهم الحروب العربية الحديثة . وأكثرها تمثيلاً لقدرات الإنسان العربى والأمة العربية . فقد شارك الإنسان العربى فى هذه الحرب بروحه ودمه ، وأسهمت الأقطار العربية فى الحرب بدرجات متفاوتة ومستويات مختلفة عسكريًّا وسياسيًّا . فجسدت الحرب التضامن العربى وجاءت بميلادٍ جديد وبعث جديد للأمة العربية ، محا صفحة الهزيمة . وسطر صفحات جديدة للشخصية العربية . وأبدع مجموعة من الإنجازات والتغييرات فى قضية الصراع القومى العربى الإسرائيلى ، وفى كثير من المقاييس والموازين العربية والعالمية . وتجاوزت تأثيرات حرب أكتوبر الجوانب العسكرية لتمتدّ إلى الأبعاد الاجتماعية والسياسية والنفسية والإعلامية والثقافية . فأهمية حرب أكتوبر العظيمة بقدر عظمة الدماء العربية والشهداء العرب والإنجازات العربية التى صنعت الحرب . لذا يجب أن تسجلها

صفحات الأدب العربي لتبقى فى ذاكرة الأجيال . ويجب ألاّ تمس بسبب الخلافات السياسية العربية العابرة . لأنها من حق الأمة العربية والتاريخ العربي والجماهير العربية وهى الباقية . أماَّ الأنظمة والحكام والأفراد فإلى زوال .

ومنذ انتهت حرب أكتوبر عملت مراكز الدراسات الاستراتيجية والقيادات العالمية والعربية والإسرائيلية على دراسة معاركها وأساليبها وآثارها الجديدة المؤثرة فى الحرب المقبلة . مثل كتاب « الهيثم الأيوبى » « دروس الحرب الرابعة » . الذى يقدم دراسة خبير عسكريّ استراتيجى عربيّ لحرب أكتوبر . محلّلاً مقدمات حرب أكتوبر ومعاركها ونتائجها . معتمدًا على وجهات النظر المتعددة من كل جانب . بغية تقييم الدروس الاستراتيجية والاستراتيجية العليا التى برهنتها أحداث الحرب مستشهدًا على ذلك « بأقوال المفكرين والعسكريين من عرب وإسرائيليين . وشهادات المراسلين الحربيينْ الذين عاشوا المعارك على الجبهتين السورية والمصرية . ونقلوا أحداثها يومًا بيوم » .

وفى هذا الكتاب يتحدث الكاتب العربى « الأيوبى » عن أهمية الحرب الرابعة . التى هزّت الكثير من المفاهيم . وقلبت العديد من المسلمات . ودخلت كل بيت داخل الأرض المحتلة وخارجها . وكان أعنف صدام شهدته المنطقة فى تاريخها . وأعنف حرب تعرضت لها الدولة الصهيونية خلال ٢٥ عاماً من حياتها . ولقد نجم عن هذه الحرب نتائج مادية ومعنوية واستراتيجية واقتصادية بالغة الأثر شملت جانبي الخندق .. . ويؤكد ضرورة دراسة الحرب وتعمقها . وأن الإسرائيليين طالما تعلموا من دروس حروبهم مع العرب فيما عدا حرب ١٩٦٧ . التى انتشوا بالنصر السهل فيها « وتكلسوا » عند مفاهيمها . ومن ثم وقعوا فى أسر أوهامها . ولم يتعلموا دروس حرب الاستنزاف ومعارك الصواريخ السابقة على حرب أكتوبر . ففشلوا فى تقييم معلومات مخابراتهم عن الحشود العربية قبيل

أكتوبر ، وتلقَّوا مفاجأتهم الكبرى بقيام العرب بهجومهم الكاسح . » وكان حجم الهزة التى أصابت عقيدتهم فى الحرب الرابعة مماثلاً لحجم هذه الخطيئة المصيرية

فى مجال الاستراتيجية العليا تعطينا حرب أكتوبر ستة دروس :

الأول : أن القوة تخلق القوة . وأن انتصار إسرائيل فى الحروب الثلاث السابقة حفز القوة العربية . ودعا العرب إلى النهوض القومى واستخدام إمكانياتهم الكثيرة ، مثل الكَمّ البشرىّ الهائل والقوة الاقتصادية والعلمية . كما برهنت حرب أكتوبر على سقوط فكرة الهوة التكنولوجية التى قيل إنها تفصل بين الإسرائيليين والعرب علميا . وأثبتت على العكس أن الحرب العصرية تتحمل خسائرها المجتمعاتُ البشريّةُ الضخمة بينما تضار منها المجتمعات الصغيرة كإسرائيل . ومن ثَمّ أكدت حرب أكتوبر أن الزمن يعمل لصالح العرب وليس العكس كما كان يزعم الإسرائيليون .

والدرس الثانى فى حرب أكتوبر : أن العرب نجحوا فى تحقيق استراتيجيتهم . التى طالما نادوا بها فى الحروب السابقة دون تطبيق ، وحققوا حربهم طويلَة الأمد . ومنعوا الإسرائيليين من تحقيق استراتيجيتهم الثابتة فى الحرب الخاطفة . وقد فعَل العرب ذلك تحت ضغوط دولية ضخمة حدّت من حريتهم فى العمل بموجبها فى النهاية ، نظرا لاعتماد الطرفين على أسلحة الدولتين العظميين .

أما الدرس الثالث : فقد أثبت أن أمريكا هى الصديق الوحيد لإسرائيل . وأن استمرار الدعم الأمريكى لإسرائيل معرض للتبدل تبعاً لمقتضيات المصالح الأمريكية . ولدى الإسرائيليين : أفشلت الحرب نظرية الحدود الآمنة . وأكدت أنه لا يمكن الجمع بين احتلال الأرض والسلام . أو بين الاحتلال وسياسة التهدئة والتجميد . كما أثبتت الحرب إمكانية مفاجأة إسرائيل قمّة قوتها وبالتالى هزّت صورتها كشرطىّ المنطقة ، فإسرائيل لم تستطع أن تدافع عن نفسها . لذلك

ضعفت صورتها ومركزها فى خطط السياسة الأمريكية وهذا كله أثر على استمرار الدعم الأمريكى المطلق لإسرائيل - وجعل موقفها بعد الحرب أضعف - أمام أمريكا - من موقفها قبل الحرب .

الدرس الرابع : فشلُ نظرية إسرائيل فى عدم إمكانية اتفاق العرب وتضامنهم فى استعمالهم لقوتهم الاقتصادية ولسلاح النفط فى المعركة لصالح العرب . لأن قوة التضامن العربى أظهرت إمكانية زوال الخلافات العربية فى أوقات الحرب والوقوف معا ضد الخطر القومى . وأثبتت حرب أكتوبر إمكانية استخدام وسائل غير قتالية فى الحرب ، كسلاح البترول الذى لم يُستخدم فى الصراع العربى الإسرائيلى من قبل وأثبت فعالية حاسمة عند استعماله - وأنه أحد أسلحة المستقبل الهامة والمؤثرة - الذى دل العرب على إمكانياتهم الكثيرة التى يمكن استخدامها فى أوقات التضامن والوحدة .

الدرس الخامس : يتصل بقضية القومية العربية التى أثبتت وجودها وإمكانية تغليب الخطر القومى على التناقضات القُطْرية .

أما الدرس السادس : فهو تأثير الهدف السياسى على الخطة العسكرية .

أما الدروس الاستراتيجية لحرب أكتوبر فهى كثيرة ومتعددة . مثل إمكانية الخنق الاستراتيجى عند انعدام الردْع . فقد حقّقت حرب أكتوبر الخنق الاستراتيجى فى البحر الأحمر بإغلاق باب المندب ، ومثل إمكانية الاعتماد على هامش الزمن وتحقيق المفاجأة الاستراتيجية قبل أن يتمكن العدو الإسرائيلى من تجميع احتياطيه . ويصف « رفل بنكلر » تأثير المفاجأة العربية بقوله : « لقد فاجأونا ، لقد أمسكوا بنا ونحن فى سراويلنا الداخلية - لقد أمسكوا بنا ونحن فى قمة سعادتنا وثقتنا ، عندما كنا نثق بقوتنا أكثر مما ينبغى - وعندما كنا نعتقد أننا نستطيع ضرب أى عدوّ فى ستة أيام ، كما تعلمنا دروس المفاجأة ضرورة التمييز بين المعلومات

وبين تقييمها . فإن الخطأ فى التقييم والوقوع تحت تأثير الأفكار السابقة هو أهم أسباب نجاح المفاجأة العربية فى حرب أكتوبر . وفشلت نظرية الحدود الآمنة وتحطمت أسطورتها ، لأن الحدود الجديدة للأرض المحتلة لم تحْمِ العدو الإسرائيلى من زلزال الحرب . فكما يقول الأيوبى : « ومن سخرية المصادفات بالنسبة إلى مُنظّرى سياسة الأمن . أن سيناء أفادت أمن إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ أكثر مما أفادتها فى حرب ١٩٧٣ . لأنها فى حرب ١٩٦٧ صنَعت حاجزًا واسعًا بينها وبين الجيش المصرى حال بين الصدام السريع المفاجئ بينما فى حرب ١٩٧٣ اقتربت إسرائيل من تجمعات الجيش المصرى وحشوده فأمكنه العبور وتوجيه ضربات هائلة إلى القوات الإسرائيلية . وهذا أثبت فشل نظرية الحدود الآمنة . كما فشلت سياسة المستعمرات فى الأراضى المحتلة لأنها أخليت عند قيام الحرب . وثبت أيضا خطأ احتلال أراضٍ واسعة . لأنها سهّلت اصطياد القوات الإسرائيلية بعيداً عن قلب الدولة .

وحطّمت حرب أكتوبر حلقة الردع ووهم العدو الذى لا يقهر إزاء الشعوب على تحقيق إرادتها والدفاع عن مصيرها . وفشل الطيران الإسرائيلى فى الحسْم الاستراتيجى أمام قوة الدفاع الجوى والأساليب الجديدة للطيران العربى المقاتل . مما أدى إلى خوْف الطيارين الإسرائيليين من قوة الصواريخ وأساليب القتال الجوى الجديدة . وحول الطيران الإسرائيلى من سلاح حسم للمعركة إلى سلاح دعْم ومساندة . أى من عامل رئيسى إلى عامل مساعد . وأمنت الصواريخ بعيدة المدى سلاح ردع القوات العربية مما أتاح لها حرية العمل . كما أنهى اقتحامُ « خط بارليف » دورَ خطوط التحصينات القويّة فى الدفاع . ويقارن الخبيرُ العربى بين توقف العقلية الإسرائيلية أو « تكلسها » عند المفاهيم السابقة لحرب يونيو ١٩٦٧ . وبين تعلُّم القادة العرب لدروس تلك الحرب المريرة . لذا نجح العرب فى

استخلاص الدروس لحرب أكتوبر ، بينما فشل الإسرائيليون فى ذلك لتحجرهم عند المقاييس الماضية . ومن ثم أعادت حرب أكتوبر المواطن الإسرائيلى إلى قلقه الأول حول مصير إسرائيل كما لو كانت فى بدء تكوينها وحطمت معارك الحرب ووقائعها كل المسلمات والأوهام التى دأب الإعلام الإسرائيلى على اختلاقها . وعندما حاول ذلك الإعلام تخطى الوقائع وتجاهل حقائق الانتصارات العربية ، وقع فى الارتباك والاضطراب ، وفقد ثقة الداخل والخارج .

فعندما أكدت وقائع حرب أكتوبر صدق الإعلام العربى وكذب الإعلام الإسرائيلى ، اضطر « أهارون ياريف » إلى عقد مؤتمر صحفى اعترف فيه بأن بيانات المتحدث العسكرى الإسرائيلى لم تكن صحيحة خلال حرب أكتوبر . وعلق عليه « شموئل تمير » عضو الكنيست الإسرائيلى . فى جلسة خاصة عقدها الكنيست لمناقشة فشل الإعلام الإسرائيلى وكذبه خلال حرب أكتوبر . قائلا : « لقد وصلنا إلى وضع ، سيدى الرئيس ، كان على فيه أن أسمع فى خارج البلاد : لاثقة . وكيف يكون الحال إذا صرح الناطق بلسان جيش الدفاع ببلاغ فى أيام المعارك ، ثم قام العميد أهارون ياريف وقال إن التصريح غير صحيح فى ذلك المؤتمر الصحفى الذى حضرناه جميعًا » .

وهرع « فيليب غيفينز » رئيس اتحاد الصهيونيين فى كندا إلى إسرائيل . مصورا اهتزاز ثقة اليهود فى الإعلام الإسرائيلى ونجاح الإعلام العربى بالمقابل فى اكتساب ثقة الجميع ، قائلاً فى تصريح لصحيفة « جيروزاليم بوست » الإسرائيلية : « لقد كنا مشوشين بشأن أخبار ما يجرى حقيقة فى إسرائيل . فالأنباء التى ترد من المصادر الإسرائيلية كانت تأتى مشوشة ومضطربة . بينما الأخبار الواردة من المصادر العربية واضحة وجلية ، ولذلك قرر الاتحاد الصهيونى الكندى تكليفنا بالقدوم إلى إسرائيل كوفد مكون من أربعة أشخاص للوقوف على حقيقة الأمر .

ونشرت صحيفة « جيروزاليم بوست » أيضا مقالاً للكاتب الإسرائيلى « ركس دالنى » . عن « الإعلام الإسرائيلى والحرب » نقل فيه كاتبه عن الصحفى الأمريكى « آل ماكلور » مدير مكتب وكالة « الأسوشيتد برس » فى اسرائيل لمدة ١١ سنة . قوله : « لقد شعرنا بوصفنا مراسلين وصحفيين أجانب أنه ينبغى أن نتمكن من الحصول على الحقيقة لأنفسنا . خاصة وأن العرب كانوا يرددون مزاعم كبيرة . وأن أنباءهم كانت ترد من صحفيين موثوق بهم .. لقد كانت لدينا بيانات متضاربة وهى صادرة عن « ديان » و« اليعازر » و « ياريف » أنفسهم لاعن المتحدث فقط . وقد أدى ذلك بالطبع إلى اهتزاز ثقتنا فيما تقوله إسرائيل .. وقد انعكس هذا الشعور بعدم الثقة بدوره فى أجهزة الإعلام فى أنحاء العالم .. إنهم كانوا يستخدمون الصحافة كأدوات تعينهم على الخداع وهذا مالا نحبه بالطبع .. والأكثر من ذلك أنه يعنى أننا لا يمكننا أن نثق بعد ذلك فى أى من البيانات الإسرائيلية »

لقد عرّت حرب أكتوبر الإعلام الإسرائيلى . وكشفت معارك وانتصارات العرب كذب إعلام العدو . وفضحت هذه الشهادات الإعلام الإسرائيلى خلال حرب أكتوبر . وكشفت معارك حرب أكتوبر بوضوح عن كذب الإعلام الإسرائيلى . نظرا للضربات العنيفة التى وجهتها القوة العربية إلى الكثير من المسلمات والأوهام الإسرائيلية عن العرب . بينما نجد أن هزيمة يونيو ١٩٦٧ ساعدت على نشر الكثير من الأكاذيب الإسرائيلية حول العرب وقواتهم المسلحة ومراكزهم الحضارية والعلمية .

وأكدت وقائع حرب أكتوبر ١٩٧٣ كذب الإعلام الإسرائيلى وفضحته . ليس لدى الإعلام الغربى فحسب . بل لدى المواطن الإسرائيلى أيضا . الذى اكتشف كذبه بسهولة . ويرى « محمد على العوينى » فى دراسته عن « الدعاية الإسرائيلية والحرب العربية الإسرائيلية الرابعة » . أن اكتشاف الفرد الإسرائيلى

لكذب الدعاية الإسرائيلية وتشويهها للحقائق أدى إلى ضعف قابليتها للتصديق لدى الفرد الإسرائيلي . وسهل قبوله للحقائق المضادة عن القصور فى الجيش الإسرائيلى وعن قوة الجيوش العربية . وعن الغرور الذى اتسمت به القيادة الإسرائيلية بالإضافة إلى شجاعة وبسالة الجندى العربى . فهكذا حطمت حرب أكتوبر خرافات الجيش الذى لا يقهر والأمن الإسرائيلى . وتجلت فجوة الثقة بين المواطن الإسرائيلى وإعلامه خلال حرب أكتوبر فى « المظاهرات والاتهامات العلنية داخل مجلس الوزراء الإسرائيلى وموقف الأطراف المختلفة . وليس أدل على انعدام الثقة فى الإذاعات الإسرائيلية العبرية ماأكدته مصادر مختلفة من لجوء المستمع الإسرائيلى إلى الإذاعات الأجنبية ومنها الإذاعة العبرية الموجهة من الدول العربية »

وهذه مقتطفات من الأمر الصادر عن العميد « شلومو جونين » قائد المنطقة الجنوبية . « سيناء » . كما أذاعته إذاعة إسرائيل العبرية الساعة ١٣ فى يوم ١٠ من أكتوبر سنة ١٩٧٣ . وجاء فى أمر « جونين » لقواته : « إنكم تقفون اليوم فى معركة بالغة القسوة .. إنها ليست حربا خاطفة كما تعودنا فى المعارك السابقة . إن الحرب هذه المرة صعبة ومتواصلة وأمامنا يقف الجيش المصرى .. « وقال « جونين » أيضا : » يمكننى القول لكم إن هذه الحرب لا تماثل الحرب التى عرفها جيلنا فى الماضى . فهجمات العدو تقوم بها أعداد غفيرة مدعمة بالمدرعات ووسائل الحرب الأخرى وأسلوب القتال الذى يتبعه العدو يتفق مع أسلوب حروب الشعوب التى لا تضع فى اعتبارها حياة الفرد . لقد حاربنا وعلينا أن نحارب بصورة متواصلة وصعبة » . هذا النص المترجم عن العبرية لأحد القادة الإسرائيلين يلخص الصدمة الإسرائيلية وانهيار كل المزاعم الإعلامية الإسرائيلية عن العرب ومدى قوتهم وصلابتهم شهادة إعلامية مذاعة تؤكد أن الإعلام الكاذب لا يمكن أن يثبت فى مواجهة حقائق القوة وأحداث المعارك العنيفة . وأن « الدعاية مهما بلغت من

قوة . انعكاس للأوضاع العسكرية والسياسية والاقتصادية القائمة . بالإضافة إلى تفاعلها مع هذه الأوضاع وتأثرها بها » .

فإذا كان الإعلام الإسرائيلى قد حاول استثمار الانتصارات الإسرائيلية فى الحروب السابقة على أكتوبر للتقليل من قيمة الانتصارات العربية . ومحاولة نفى الصورة الجديدة للمحارب العربى المنتصر . وتأكيد المزاعم الإسرائيلية السابقة عن قوة الجيش الإسرائيلى الخرافية وقوة النظام السياسى والاقتصادى الإسرائيلى . إلا أن هذا كله لم يصمد لحقائق القوة العربية الجديدة المترجمة إلى أفعال فى ميدان المعارك وفى مجال التضامن العربى والقوة الاقتصادية للعرب المستخدمة فى حرب أكتوبر . لذا تحطمت الصورة الخرافية التى دأب الإعلام الإسرائيلى على رسمها للجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر والصورة المضادة السابقة للجندى العربى . فقد تحطمت كل دعايات العدو وإعلامه مع تحطيم « خط بارليف » وعبور المانع المائى الكبير فى قناة السويس واجتياح الجولان وقمم جبل الشيخ

ويحلل « محمد على العوينى » مدلولات الألفاظ المستعملة فى الإعلام الإسرائيلى خلال حرب أكتوبر . ففى اليوم الثانى لحرب أكتوبر «١٩٧٣/١٠/٧ » وهو من أيام الصدمة العنيفة التى أحدثتها مفاجأة الحرب وحقائق الانتصارات العربية والهزائم الإسرائيلية ، حاولت الإذاعة العبرية التخفيف من هول العمل العربى بقولها : « إن الدفاع سيتحول إلى هجوم » . ولكنها اعترفت بالانتصارات العربية فذكرت فى نفس اليوم « ١٩٧٣/١٠/٧ » « أن العرب حققوا انتصارات مؤقتة » . ثم بدأ الإعلام الإسرائيلى فى محاولاته الفاشلة لتغطية الهزائم الإسرائيلية بالأكاذيب عن سير المعارك . وهى أكاذيب كشفتها أجهزة الإعلام العربى وكذبتها تطورات المعارك والانتصارات العربية . فادعت الإذاعة العبرية فى اليوم الثالث للحرب «١٠/٨ » « أن كل الجسور التى وضعها المصريون قد دمرت وأن الانسحاب أصبح صعباً

وربما مستحيلاً » . غير أن استمرار العبور فوق الجسور كذّب هذه المزاعم . كما حاولت إسرائيل تغطية اهتزاز الاقتصاد الإسرائيلى نتيجة لاستمرار التعبئة العامة فى الحرب ، بالزعم « فى ١٠/٨ » « بأن الإنتاج استمر فى معظم المصانع الإسرائيلية رغم النقص فى القوى العاملة نتيجة للتعبئة العامة » . أو التظاهر بالصمود والحرب الطويلة ، كما قالت الإذاعة العبرية فى ١٠/١٩ « إن الحرب التى تخوضها إسرائيل حرب ستطول ولكننا نستطيع أن نصمد فيها » . وكذلك ماأذاعته يوم ١٠/١١ : « إننا نستخدم أسلوب الاستنزاف ضد المصريين بطريقة بطيئة ولكن مضمونة » ، محاولة التقليل من شأن الانهيار الإسرائيلى فى معارك حرب أكتوبر . غير أن هذه المزاعم الكاذبة التى حاول الإعلام الإسرائيلى أن يغطى بها الهزائم الإسرائيلية فى حرب أكتوبر ، سقطت كلها فى ميدان المعارك والحقائق . بل وأحدثت أثرا عكسيًّا لدى المواطن الإسرائيلى والشباب الإسرائيلى والنشء الإسرائيلى كذلك ، لأنها حطمت صور الاستعلاء الإسرائيلى وتناقضت مع الوقائع المعروفة للعالم كله . فأدت إلى انهيار ثقة الإسرائيليين فى أسس نظامهم وسياستهم ، ووضعت علامات استفهام كثيرة حول المستقبل الإسرائيلى فى ظل حقائق القوة العربية والتضامن العربى كما برزت فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ . وعبرت صحيفة « جيروزاليم بوست » الإسرائيلية عن فشل الإعلام الإسرائيلى فى اكتساب ثقة الإسرائيليين بقولها : « إن فجوة خطيرة حدثت فى أثناء الأيام الأولى للحرب . وشعر الإسرائيليون أنهم مضللون » .

وأثرت حرب أكتوبر على اتجاهات الرأى العام الإسرائيلى فى المدى القريب والمدى البعيد . كما تابعها الباحث « السيد عليوه حسن » فى دراسة عنوانها « آثار حرب أكتوبر على الرأى العام فى إسرائيل » . ويحدد الباحث مجال دراسته للرأى المستنير المؤثر فى صنع القرارات السياسية كما عبّرت عنه تعليقات الصحف

الإسرائيلية واتجاهات المنظمات السياسية والاجتماعية . وهكذا تأتى هذه الدراسة فى الصحف الإسرائيلية تتمة لسابقتها التى درست نصوص الإذاعة العبرية خلال حرب أكتوبر .

أما الآثار القصيرة المدى ، التى تمثل ردود الفعل الأولى للإعلام الإسرائيلى إزاء مفاجأة حرب أكتوبر ، فهى آثار كثيرة ومنوعة . تبدأ برد الفعل الأول . بالدهشة والخوف وهول المفاجأة . فقد « فاجأت الحرب الإسرائيليين فى المعابد » . ومحاولة بث طمأنينة كاذبة تتصل بالغرور الإسرائيلى السابق على حرب أكتوبر الذى تمثل فى قول « موشى ديان » للإسرائيليين فى الليلة الأولى للحرب « بأن فى وسعهم أن يناموا ملء جفونهم » . غير أن هذه الطمأنينة الكاذبة كالإعلام الكاذب لم تلبث أن قادتهم إلى الارتباك الإعلامى وانفضاح الكذب الإعلامى . ومن ثم اهتزاز الثقة فى الجيش الإسرائيلى الذى أمكن قهره أخيرا . مما سبب « شعورًا بالمرارة الناجمة عن حالة عدم التأهب التى تسبب فى هزائم الأيام الأولى وبسبب عزلة إسرائيل » .

وهذا أدى بدوره إلى انتشار الإشاعات المدمرة للنفسية الإسرائيلية . مما دعا قادة الأحزاب السياسية إلى محاولة رفع الروح المعنوية ونفى الإشاعات وتجنب سمعها . فبثت الإذاعة العبرية حوارًا بين سكرتير عام حزب العمل « أهارون يادين » ورئيس دائرة حزب الأحرار « اليمليخ ريملت » ، وعضو الكنيست « حاييم كلافيخ » حول ضرورة نفى الإشاعات وعدم الاستماع إليها أو التأثير بها صيانة للروح المعنوية . بل إن « حاييم بارليف » يكتب معترفا بفقد ثقة الإسرائيليين قائلاً : « إنه لا يوجد أمامنا فى هذه الأيام ماهو أهم من إعادة ثقة الجمهور بقوتنا . لا لأن هذا مفيد بالنسبة للروح المعنوية فحسب بل لعدم وجود أى أساس لهذه المخاوف القائمة على معلومات خاطئة وإشاعات » .

وهذا يوضح مدى الانهيار الذى أحدثته حرب أكتوبر فى الرأى العام الإسرائيلى حتى قال أحد جنود العدو لمراسل وكالة اليونيتد برس فى جبهة سيناء « لقد كان الأمر أكثر سهولة منذ ست سنوات .. واليوم لم يكن يخطر ببالى أن جيشنا لن يتمكن من هزيمة القوات المصرية » . بل إن عدداً كبيرا من أساتذة الجامعة الإسرائيلية يطالبون بأن تترك إسرائيل معظم الأراضى المحتلة بعد ١٩٦٧ وحتى بعد وقف إطلاق النار ظل شبح الحرب جاثما على نفوس الإسرائيليين وظهر هذا فى استفتاء أجراه « معهد البحوث الاجتماعية فى الجامعة العبرية » وثبت أن ٩٠ ٪ من الإسرائيليين يتوقعون حربا قريبة .

وعندما أخذت أرقام الخسائر البشرية تتكشف .. سيطرت مشاعر الكآبة والإحباط والمرارة والعزلة على الإسرائيليين . وتزايدت الأمراض النفسية والقلق والتوتر بشكل جارف . حتى اضطر راديو إسرائيل إلى إذاعة نداءات من كل عالم نفس « ينصح مستمعيه من النساء بأن يزاولوا الكثير من التمرينات الرياضية كوسيلة للتغلب على التوتر العصبى والقلق . وفى جامعة « باريلان » التى لاتبتعد كثيرا عن تل أبيب – فتح قسم الدراسات النفسية مكتبًا للاستشارات المجانية ، ويقوم القسم أيضاً بزيارة الإسرائيليين المتعبين نفسيا فى منازلهم ويقدم العلاج لمن يعانون من التوتر العصبى والاكتئاب النفسى » .حتى اعترف « د . هانزكرايتلر » مؤسس علم النفس فى جامعة تل أبيب : « إنها حرب مرة حتى أن الناس لايشعرون بسعادة إذا أبلغتهم أنباء طيبة » .

هذه هى صدمة حرب أكتوبر التى أصابت نفوس الإسرائيليين بالانهيار النفسى وفقدان الثقة فى كل شىء . أضف إلى ذلك ماهو معروف من تحطيم أسطورة الإسرائيلى المتفوق وعدم كفاءة العربى . وسقوط هيبة المؤسسة العسكرية . وتدهور الروح المعنوية لدى الرأى العام الإسرائيلى ، إلى درجة انتشار أنباء كثيرة زائفة تنقل

بالتليفون إلى العائلات الإسرائيلية بوفاة أبنائها فى ميادين القتال . مما جعل صحيفة « معاريف » الإسرائيلية تتصور أن هناك منظمة سياسة معادية فى إسرائيل قد تكون وراء هذه الحملة الهادفة إلى تحطيم الروح المعنوية . هذه هى الآثار الفورية التى أحدثتها حرب أكتوبر فى الرأى العام الإسرائيلى . وهى آثار مدمرة كزلزال رهيب هزّ الرأى العام الإسرائيلى من الداخل . وعندما سكتت مدافع حرب أكتوبر بدأت الحرب الأهلية الكلامية داخل إسرائيل . دارت كثير من معارك تلك الحرب الكلامية حول فشل الإعلام الإسرائيلى . وفجوة الثقة والتصديق التى حفرتها له ضربات الجنود العرب فى سيناء والجولان وداخل الأرض المحتلة .

ولعل هذا كله يؤكد مدى أهمية حرب أكتوبر ، وعمق تأثيراتها وشموليتها . فلقد خاضت قواتنا لأول مرة حرباً حقيقية طال الاستعداد لها وانتظارها ، وعلى أدبنا العربى ألاّ يدع معارك هذه الحرب تمر دون تسجيل وتصوير وتخييل وإبداع وابتكار لتدعم ثقتنا فى قدراتنا الإنسانية . وتبرز هذه النماذج للأبطال العرب الجدد الذين تحدّوا المستحيل واقتحموا واستبسلوا وحاربوا حقا ، وبذلوا الأرواح والدماء وتركوا موقف الانتظار والصبر والاتكالية والخوف والتردد . هذه الحرب العظيمة يجب أن تكتب الأعمال الأدبية اللائقة بمستواها الفنى كميا وكيفيا ، وألا تخضع الحرب للخلافات السياسية العابرة والمؤقتة ، لأنها ملك للأمة العربية وهى الباقية . أما الخلافات والأنظمة والأشخاص فإلى زوال ، وتبقى قيمة الحرب وإنجازاتها ودلالاتها ودروسها ، مهما كانت النتائج التى تمخضت عنها .

لقد كنّا نتهم بأننا قوالون ، أقوالنا أكثر من أفعالنا ، وكررت هزيمة يونيو تلك المقولة عندما حاربنا بالكلام المذاع والمطبوع فى الصحف ، أما فى حرب أكتوبر وأدب أكتوبر ، فقد أثبتنا أن القول أقل من الفعل ، وأن جبهة القتال كانت أعظم من جبهة الأدب ، وقلنا إنه توفيق حقيق لأن الفعل أبرز من القول . ولكن الآن

يجب على جبهة الأدب أن تعيش على مستوى الفعل ، وأن تبدع على مستوى الحرب ، وأن تجسد الأبطال الصاعدين من قلب شعبنا عمالاً وفلاحين ومثقفين . فهذه الحرب العظيمة ، برغم محدوديتها وقصرها ، يجب ألاّ تفلت من أقلام كتابنا . ففى هذه النماذج البطولية خير مثل عليا يتعلق بها شبابنا وأطفالنا ، لأنها تعنى الخروج من حيز اليأس والعجز والضعف إلى تأكيد قدرات الإنسان العربى . هنا يأتى دور الأدب العربى لتجسيد حرب أكتوبر وبطولاتها . فهذا هو الطريق الصحيح كى يساعد الأدب العربى على إعلاء المثل النبيلة القوية أمام الأجيال الجديدة ، وبث قيم الجدية والشجاعة والوطنية والقومية والشرف .

وإذا كانت حرب أكتوبر قد فاجأت الأدباء مثلما فاجأت سواهم ، فجاءت ثمار أدب أكتوبر الأولى انعكاسًا انفعاليًّا حماسيًّا للحرب فى شكل مقالات قصيرة وبعض القصص والقصائد . وقلنا فى تبرير تخلف أدب أكتوبر عن مواكبة حرب أكتوبر إن الأعمال الأدبية تحتاج إلى المزيد من الوقت لأن الإبداع الأدبى المركب يحتاج إلى ماهو أكبر من الدفقة الشعورية والانفعال المتحمس . هكذا انتظرنا طوال ثمانية أعوام أدب أكتوبر العربى حتى حان وقت الحصاد والدرس .

الآن وقد مرت ثمانية أعوام على انتهاء معارك حرب أكتوبر ، ما هى المحصلة النهائية لأدب أكتوبر العربى ، وكيف انعكست حرب أكتوبر فى إبداعات الأدباء العرب على صفحات الأدب العربى الحديث .. هذا ماتحاول هذه الدراسة أن تجيب عنه بمتابعتها لأهم نماذج أدب أكتوبر العربى . فى القصة القصيرة والشعر والرواية .

أحمد محمد عطية

حرب أكتوبر
فى القصة العربية القصيرة

القصة القصيرة فن أدبي حديث مرتبط بظهور وانتشار الطباعة والصحافة . وتطوير عصرى لفن أدبي قديم هو فن الحكاية ، مصاحب للتطور العلمى الذى قدّمته المطبعة والصحيفة لأدوات النشر والاتصال الجماهيرية . وإذا استعرضنا الفنون الأدبية اليوم ومدى استجابتها للتطورات السريعة ومدى تعبيرها عن هموم العصر واليوم والساعة . وجدنا أن القصة القصيرة تنفرد بحضورها وحيويتها وحساسيتها ، لأنها الفن الأدبي القادر على التقاط نبض العصر والتعبير عن التطورات الجارية فى المجتمع . وهذا راجع إلى قالبها المميز بالقصر الذى يسمح لها بالنشر السريع فى الأجهزة الإعلامية والجماهيرية الواسعة الانتشار كالصحافة والإذاعة . كما أن قصرها يكفل لها أيضًا سرعة التلقّى واتساع دائرة المتلقّين . وأن هذه العلاقة الفريدة بين فن القصة القصيرة وجمهورها هى التى تجعل من هذا الفن

أكثر الفنون الأدبية المعاصرة حساسية واستجابة للمعارك والأحداث الهامة ولآلام الناس وآمالهم ، ومن ثَمَّ أكثر اقترابًا وصدقًا من معترك الحياة ومعارك الحرب والنضال .

ويغرى قالب القصة القصيرة البسيط ، فى ظاهره ، الكثيرين بكتابتها ؛ لذلك يبرز من بينهم القليلون الذين يستوعبونها كفنّ حساس وقالب شعرى . فليس المقصود بقصر القصة هو قصر حجمها فحسب ، بل قصر زمنها ومحدودية شخصياتها أيضاً . فالقصة القصيرة قد تعبر عن العصر أو عن الحرب ولكن من خلال لحظة أو موقف . ومن هنا وصفت القصة القصيرة بأنها فن اللحظة الهامة ، كما ذكر الناقد الأيرلندى « فرانك أوكونور » فى دراسته الهامة الفريدة عن فن القصة القصيرة « الصوت المنفرد » فإن اختيار هذه اللحظة من أدق خصائص القصاص الذكى المبدع ، تلك اللحظة التنويريّة التى قد تكشف عصراً بأكمله إذا أحسن اختيارها . ويعنى قصر القصة القصيرة تكثيف هذه اللحظة وتركيزها وتقطيرها والعناية بكل كلمة وكل جملة بما يقترب بها من الصياغة الشعرية الجميلة الموحية . فلا توجد فى القصة القصيرة شخصيات زائدة أو عبارات أو مواقف غير ضرورية . ولعلى أضيف أن القصة القصيرة بتعبيرها الفنى عن اللحظة أو الموقف ، هى فن المجتمعات النامية التى تمرّ بتحولات اجتماعية وسياسية وبأحداث عظيمة تهز نظمها وقيمها وأعرافها ؛ لذا نجد أن القصة القصيرة هى أسبق الفنون الأدبية العربية الحديثةفى الظهور والانتشار وأكثرها تطورًا . بعد الشعر فن العرب الأول ، بالقياس إلى فن مركب كفن الرواية الذى يرتبط ظهوره ونموه بنمو المجتمع وتعقده وتشابكه . فلا شك أن قصر الوقت الذى يتطلبه إبداع القصة القصيرة ، بالقياس إلى طول زمن إبداع الرواية مثلاً ، له تأثير كبير فى حيويتها وحساسيتها وتعبيرها الآلى عن العصر وعن المعارك والحروب والأحداث الهامة . وكذلك يساعد

مجال نشرها بالصحف على عصريتها . ويسهل نشرها وتوصيلها . بينما تتطلب الرواية أو المسرحية مثلا وقتًا طويلاً فى الكتابة قد يستغرق سنوات . وإعدادا كبيرا فى المطبعة أو المسرح قبل خروجها للجماهير المتلقية . يضاف إلى هذا سهولة التلقى . فقراءة قصة قصيرة لا يتطلب جهدًا وعناءً ووقتًا مثل قراءة رواية أو مشاهدة مسرحية .

وهكذا نجد أن القصة القصيرة هى الفن الأدبى البارز فى التعبير عن حرب أكتوبر . بعد الشعر . فقد أتاحت لها الصحف الثقافية مساحات كبيرة للنشر . ولكنها لم تحظ بنفس الاهتمام فى الكتب بالمكتبة العربية . ونظرًا لكثرة القصص القصيرة المنشورة فى الصحف وقلّة المجموعات القصصية . فسنكتفى بانتقاء بعض النماذج المنشورة بالصحف الثقافية والمجموعات القصصية القليلة الصادرة فى المكتبة العربية .

توزعت قصص أكتوبر بين قصص الحرب والمعارك فى الجبهتين العسكرية والمدنية . وبين القصص المكتوبة من وحى أكتوبر وزخمه وانطلاقًا من تفجيرات أكتوبر والآمال الكبيرة التى فتح لها طاقات الإبداعات .

فى قصص الحرب والمعارك اليومية تبرز ثلاث مجموعات قصصية « حكايات الغريب » « لجمال الغيطانى » . « من يذكر تلك الأيام . للأديبين السوريين « حنا مينه » ود . « نجاح عطار » . و « قصص الدم والرصاص » من بطولات حرب أكتوبر . لعبد الفتاح رزق . وبعض القصص الأخرى المنشورة فى المجلات الثقافية . وفى القصص المكتوبة بروح أكتوبر ووحيه وزخْمه . نجد مجموعة « من وحى أكتوبر » لصلاح إبراهيم عبد السيد « وعزيزة صادق » . وبعض قصص مجموعة « حكايات الحب اليومية » للدكتور نعيم عطية . وبعض القصص الأخرى المتناثرة فى الصحف الثقافية ولم تجمع بين دفتى كتاب .

تضم مجموعة « حكايات الغريب » « لجمال الغيطانى » سبع قصص تتراوح بين القصة القصيرة والقصة الطويلة القصيرة . وتشكل رؤية لأحداث حرب أكتوبر . على المستويين العسكرى والمدنى . فنطالع أحداث الحرب من خلال تصوير الناس العسكريين والمدنيين . والناس . فى قصص « جمال الغيطانى » هذه . عاديون بسطاء صغار فقراء كادحون . ومع ذلك فهم يبدون المقاومة البطولية وأعمال الفداء ببساطة فنرى كيف يكتشف هؤلاء الناس الصغار ذواتهم وكيف تظهر قوتهم وطاقاتهم الخلاقة خلال عنفوان الحرب . وقد أتاح عمل الأديب الصحفى كمراسل حربي . فرصة الاقتراب من الحرب ورجالها ومواقعها والتعايش معها والامتزاج بها . ومن هنا أفادت الصحافة عمله الأدبي وأثرته وزودته بالخبرات الواقعية لعالم الحرب . فأغنت أعماله الأدبية بكثافة الصور الواقعية المعبرة عن عمق الخبرة بواقع الحرب ؛ إذ تثبت قصص هذه المجموعة أن الفن الحقيقى هو التفكير والتعبير فى صور . كما ساعده عمله الصحفى أيضًا على الإيجاز فى العبارة والتبسيط فى اللغة . فنحن لانطالع عبارات فخمة أو صياغة لغوية تحفل بالصنعة . ولكنا نطالع لغةً أقرب إلى أسلوب التحقيق الصحفى البسيط وكلمات عادية تؤدى غرضها كلغة توصيل دون تزيد . غير أن الفن والجمال يظهران فى تركيب الجمل الثرية بالصور . ومن خلال تدفق هذه الصور تتشكل قصص المجموعة بمهارة وببساطة ودون تصنع أو افتعال أو بهرجة لفظية .

وهى قصص حديثة كتب معظمها خلال عام ١٩٧٦ . ولا تشذ عن هذه القصص سوى قصة وحيدة هى قصة « طنين » . أقصر قصص المجموعة . إذ كتبت قبل حرب أكتوبر – « ١٩٧٣ » فتخرج بذلك عن سياق هذه القصص . وتشكل حشودًا زائدًا . وكان على الكاتب استبعادها . وخاصة أنها أضعف القصص فنيًا وأبعدها عن رؤية حرب أكتوبر وأدب أكتوبر .

أهدَى « جمال الغيطانى » كتابه إلى الشهيد « إبراهيم الرفاعى » . وقد سبق له أن كتب عن قصة استشهاده ، فى عدد الهلال الخاص بأكتوبر فى عام ١٩٧٩ . فعرفنا أن العميد أركان حرب إبراهيم الرفاعى من قادة القوات الخاصة وطالعنا صور نضاله فى كل الحروب من حرب ١٩٥٦ إلى معارك الاستنزاف واقتحام سيناء حتى استشهاده فى معارك أكتوبر الأخيرة دفاعًا عن الإسماعيلية .

وقد كتب « الغيطانى » قصة شهيدنا العظيم ثلاث مرات ، الأولى واقعية فى شكل معلومات صحفية ، والثانية قصصية فى شكل قصة طويلة قصيرة (٣٩ صفحة) بعنوان « أجزاء من سيرة عبد الله القلعاوى » ، والثالثة فى رواية كبيرة بعنوان « الرفاعى » وفى قصته القصيرة احتفظ « الغيطانى » بمعظم المعلومات عن شخصية البطل الشهيد ، وأضاف إليها حداثة الشكل الفنى ومهارة الفنان المبدع فى تركيب المعلومات وتوظيفها فى بناء فنى حديث . فقد كتبت القصة من خلال عدة رؤى لزملاء الشهيد وجنوده وزوجته .

وضربت القصة فى عدة أزمنة وأمكنة ، لتعرض لنا معارك البطل وإبداعاته الجسورة وسلوكه البسيط كرجل عادى وطنى يتحرّق شوقًا لتحرير بلاده والثأر من العدو ، بسلاحه ووعيه وإيمانه بقدرات الإنسان غير المحدودة على تجاوز الهزيمة وتحقيق النصر .

وصورت القصة واقعة استشهاده نتيجة طاعته لقرار لم يقتنع به ولكنه قام بتنفيذه بذات الروح البطولية والفدائية . وتستحق هذه القصة وحدها دراسةً خاصة ، فهى أعظم تعبير عن بطولات رجال القوات الخاصة « الصاعقة » فى عمليات حرب أكتوبر ، وفى كل العمليات التى سبقتها والتى حجبتها إجراءات السلامة الأمنية القومية . ولعل هذه القصة هى أعظم قصص المجموعة تكثيفًا لخبرات المراسل الحربى ومعلوماته وثقافة الأديب « جمال الغيطانى » .

تقدم قصة « أجزاء من سيرة عبد الله القلعاوى » أنموذجاً فذًّا لبطل من أبطال القوات الخاصّة فى حرب أكتوبر ، استشهد خلالها بعد معارك ومهام قتالية فى قلب العدو زادت على تسعين معركة ومهمة قتالية واستطلاعية . يقوم المعمار الفنى فى هذه القصة على تنوير شخصية عبد الله القلعاوى من خلال رؤى مختلفة لزملائه وقادته وجنوده وزوجته ، بل ووجهة نظر العدو أيضًا .

فأعطت القصة من خلال هذا الشكل كثافة وخصوبة وثراء لشخصية البطل وقد ساعد هذا التنوع فى الرؤية الشكل القصصى على الضرب فى شتى الأزمنة . فنطالع معارك البطل فى الماضى والحاضر ، ونتعرف إلى ترجمة كاملة لحياته وعلاقاته الإنسانية ، قصة حبه وزواجه ، وابنته ، رؤيته وأسلوبه فى الحياة . سلوكه المتسم بالبطولة والوعى والبساطة والقوة معًا . ونتابع من خلال تلك الشهادات الواقعية أعماله البطولية خلال السنوات الطويلة السابقة على حرب أكتوبر كما هى ثابتة بإصابات جسمه « آثار طلق نارى بالساق اليمنى ، التاريخ ١٥ / ١ / ١٩٦٥ ، اليمن . شظايا بالرأس ، التاريخ ٧ / ٦ / ١٩٦٧ رمانة شظايا بالساق ، التاريخ ١٩ /٤/ ١٩٦٩ ، الطور . . »

هكذا كتبت القصة بقلم خبير بالحياة العسكرية والمعارك الحربية وأحداث حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر ، فساعده هذا الثراء فى المعلومات مع الكثافة فى الرؤية على شدّنا إلى شخصية بطلها التى تمثل نموذجا منفردًا بالرغم من صلاحيته . للتعبير عن بطولات حرب أكتوبر من خلال هذا البطل الفذ الذى يصلح كشاهد رئيسى على أحداث الحرب وكل المعارك مع العدو . ويضاعف وصف القصة كذلك لميدان نضال البطل ومجموعاته بأنه يسع مصر بأكملها ، وأن مجموعته تستوعب كل المهام على اختلاف أنواعها وميادينها يضاعف كل هذا من حيوية البطل ، وتمثيله لكل أنواع البطولات الحربية فتتمثل فيه حرب أكتوبر بأسرها :

« جرت العادة والقواعد العسكرية على تكليف كلّ وحدة مقاتلة بمهمة معينة يُحَدَّدُ لها إطار معين يضم أهدافًا منتقاةً للتعامل معها . ينطبق هذا على كافة التشكيلات بدءًا من السرية إلى الفرقة إلى الجيش . ولكننا لا نجد هذا منطبقا على مهام مجموعة القلعاوى . يبدو قولنا واضحًا من الخريطة الضخمة لمصر والبلد المحيطة بها والتى تحتل – حتى الآن – جدارًا بأكمله من غرفة القلعاوى . صنعت هذه الخريطة من الجبس البارز الملون . حملت دبابيس حمراء صغيرة فوق أسماء بعض المناطق بسيناء . كل دبوس يعنى عملية تمّت ضد هدف . توجد مجموعة أخرى من الدبابيس الخضراء وهذه تعنى أهدافًا سوف تهاجم . من الخريطة يتضح أن مسرح عمليات المجموعة سيناء كلها » .

أما البطَّل القلعاوى فأهم ما يتميز به هو الإيمان الشديد بقدرات الإنسان غيرالمحدودة على التصدى للآلام وقهرها وعلى تجاوز الهزيمة وتحقيق النصر . كما قدّمت القصة . من خلال سلوك البطل ومواقفه وتصرفاته . صورة فنية رائعة وممتعة له . مستبعدة أسلوب السرد والوصف الخارجى والحشو والحكايات غير الموظَّفة . فبالرغم من طول القصة فإنها لا تحتوى على كلمة واحدة زائدة على مقتضى البناء القصصى . فهذا البطل هوكذلك لأنه يضرب المثل لجنوده بالنضال والصلابة والقوة ويتصدرهم ويتفوّق عليهم باستمرار . لا يلين أو يستريح . وفى حياته الخاصة يتزوج بحبيبته متحديًا التقاليد لأسرتها . فى بيته لا يميل إلى المظاهر البورجوازية . لكل قطعة فائدة ولا توجد أشياء زائدة على الحاجة وفى الحب يحب زوجته برقّة وصفاء ودون ابتذال . مع رجاله يبحث مشكلاتهم الخاصة ويعمل على حلّها . يمنحهم الإجازات ويظل هو فى قاعدته . يتحدّى الخطر والموت فى سبيل إنقاذ رجاله . فى يوم السادس من أكتوبر خاطب زوجته هاتفا باقتضاب وحزم وفرح : « ماجدة . مبروك . الحرب قامت . فالحرب هى فرحه

الخاص ، يشعر من معه بأنه جاء إلى الدنيا ليقاتل . من أجل الثأر والتحرير ، فى عملية استشهاده علّق لأول مرة مبديًا ملاحظاته على الخطة . كان يلمح شبح الموت ويستشرف « نتيجة عملية التاسع عشر من أكتوبر » دارت بينه وبين قائده الكلمات التالية : « منتصف ليلة الثامن عشر من أكتوبر . يقف أمام « س » بمركز العمليات .

القلعاوى : هل يمكننى أن أوضح ؟

س : الموقف كما أرى واضح .

القلعاوى : لقد قلت ملاحظاتى . وبرغم هذا سأقوم بها .

فبالرغم من عدم اقتناعه الكامل بخطة العملية أطاع الأوامر ودفع حياته أخيرًا فداءً للوطن . إنها قصة ممتازة حقًّا على مستوى لائق بأبطال أكتوبر .

وبمستوى قصة « أجزاء من سيرة عبد الله القلعاوى » تأتى قصة « ريح الجبل » أطول قصص المجموعة « ٤٥ صفحة » ، وتُعدّ استطرادًا أو تنويعًا على لحْن البطل الرفاعى . « القلعاوى » فتصوِّر صمود أحد رجاله . من قوات الاستطلاع . وحيدًا فوق جبل عتاقة يرقب حصار العدو للسويس . يبلّغ . عبر جهاز الإشارة بالمعلومات ، ويصمد لكل معاناة الوحدة والجوع والبرد والخوف . وفى هذه القصة ترِد سيرة عبد الله القلعاوى وتعليماته إلى جندى الاستطلاع « ريح الجبل » ، ذلك الرجل الصغير العادى من أبناء الشعب . الذى يناضل ببسالة وبساطة ويكشف قدراته الإنسانية الهائلة على الصمود والمقاومة وتحدّى العدو والانتصار عليه .

وفى قصة « ريح الجبل » . وهو اسم حركى لجندى من قوات الاستطلاع . يمتزج التاريخ البطولى لأمتنا العربية بالواقع الاجتماعى المعاش المعبّر عنه . من خلال الصور المتعدّدة المتتابعة المكثّفة . المكتوبة بقلم خبير بواقع الحياة العسكرية والاجتماعية والمدنية لشخصياته . العليم بمجريات المعارك والأسلحة والمواقع وتطور

أحداث القتال . فنجد أسماء الشخصيات فى وحدة الاستطلاع لشخصيات بطولية فى التاريخ العربى أو التراث الشعبى أو الفن العربى الحديث من « خالد بن الوليد » « والحسين » و « سليمان الحلبى » و « يوسف بن ذى يزن » إلى « الفتى مهران » . فى بناء قصصى حديث تتداخل فيه الأزمنة والأمكنة والشخصيات والصور المعبرة . مع تاريخ نضالنا وأزماتنا الاجتماعية فى وقت واحد ولحظة زمنية مهمة ومختارة بعناية حتى لتسع الماضى والحاضر وتتطلع إلى المستقبل من خلال رؤية جندى الاستطلاع الوحيد الراسخ .

انظر كيف يصور القصاص العدوان ويراه موجهًا إلى كلّ تاريخنا وحضارتنا ووجودنا : « فى أيامه الجبلية رأى تلك السحن الغريبة عنه . أصغى إلى الألسنة المعوجة . مهما جرى فلن يقف أحدهما أمام الآخر ويتركه يمضى . سيحاول كلّ منهما القضاء على الآخر . هذه الخيام المنصوبة . الأسلاك الشائكة . الشراك الخداعية . المعدات المطّاطية . المجمعة من كلّ عواصم الدنيا . كلّ هذه الطلقات والفوهات والأحاديث المتبادلة عبر أجهزة اتصالهم . كلّ هذا الغرض منه إدخال قطعة حديد ساخنة إلى جسده . إلى جسد الحسين . إلى أحمس الأول . إلى سيف إلى سليمان الحلبى الهادئ الواثق . الموحى . إلى عبد الله القلعاوى . ربما يعرف العدو بعضهم ويجدّ فى أثرهم . عندما ولّى وجهه تجاه الجزء الجنوبى لازمته فكرة أن هؤلاء . . عدوّ . . حامت طائرات العدوّ كما توقّع . عادة لا يغير موقعه إلا من مجىء قوات جديدة للعدو . يغيرون رجالهم فى الجبل كل سبعة أيام . لا يكاد يحفظ ملامح القوة حتى يتم تغييرها .

رأينا فى قصتى « أجزاء من سيرة عبد الله القلعاوى » و « ريح الجبل » الجانب العسكرى من حرب أكتوبر . أما الجانب المدنى من الحرب فنطالعه فى بقية قصص المجموعة « السبوبة » و« مجهود حربى » و« حكايات الغريب » . التى تدور أحداثها فى

مدينة السويس خلال حرب أكتوبر. وأقول الجانب المدنى تجاوزًا لأن الأبطال والشخصيات الرئيسية لناس مدنيين. ناس صغار فى جبهة السويس المدنية والعسكرية فى آن واحد. ولكن الجوّ حرب والشخصيات العسكرية فى تلك القصص أكثر من المدينة. وإنما قصد الغيطانى إلى إبراز. بطولات هؤلاء الناس الصغار واستعدادهم للفداء بعفوية وبساطة وصدق. وأن يوضح امتزاج الجبهتين المدنية والعسكرية حتى صارت بلادنا كلها جبهة واحدة. وألمح فى هذه القصص خلْف معالم البطولة والداء حسًّا مأساويًّا مرهفًا لهذا الفنان الموهوب حقًّا. هذا الحسّ الذى جعله يلتقط نماذجه الوحيدة لتى تعطى دون انتظار لجزاء. والتى تهب الوطن كلّ حياتها دون أن تفكر فى أنه لم يعطها شيئاً على الإطلاق.

ولعل أبرز مثال على تلك الشخصيات الوحيدة المنفردة، شخصية «عويس» بطل قصة «السبوبة»، ذلك الرجل الصغير المغمور. الذى افتقد المنزل والعمل والأسرة وتقلب فى كلّ الأعمال البسيطة. ومع ذلك ظلّ على تمسّكه بالبقاء فى مدينته السويس وعلى ولائه وحبه لها، حتى انغمس فى أعمال المقاومة الفدائية دفاعًا عن السويس الحبيبة إلى قلبه والداخلة فى نسيجه ودمه ووجوده. وقد صوّر الفنان القاص «الغيطانى» حبّ «عويس» لمدينته من خلال صور معبرة تدور فى الماضى والحاضر. حيث تمتزج مأساة «عويس» وفقره بانخراطه فى كلّ أنواع المقاومة عن السويس، ابتداء من نقل الذخيرة إلى الاستشهاد الجسور دفاعًا عن المدينة وصدًّا للعدو. فيموت ذلك الرجل الصغير البسيط بتضحيته المتداخلة مع نسيج حياته، يموت كما عاش دون بطولة صارخة وبغير انتظارلأى جزاء.

«عويس السويسى» رجل عادى، بطل حقيق دون بطولة. هكذا قدمه الفنان دون خطابة أو مباشرة أو صراخ. بل إن واقعة استشهاده التى يستهل بها القصة لا تحتل سوى كلمات بسيطة محايدة هادئة، لأنه يثق فى ذكاء قارئه ويترك

له الفرصة لإكمال القصة وتصور عالمها . فيصور القصاص بطله « عويس » كرجل مغمور عاش مغمورا ومات مغموراً ، بل إن اشتراكه فى أعمال المقاومة داخل مدينة السويس التى صمدت للحصار ، لم تشر إليه القصة كعمل بطولى ، بل جاء فى صميم التكوين الخاص لتلك الشخصية البسيطة الفريدة : « حدث ليلة الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣ ، أن طارت شظية من دانة هارون ٨١ مللى إسرائيلية الصنع ، حدّ من اندفاعها فى الفراغ رقبة عويس السويسى فذبحته . دفن على عجل بمقابر أعدت بسرعة غرب المدينة . لم توضع فوق قبره لوحة تحمل اسمه ، لم ترص حوله أحجار بشكل منتظم . لم تغرس عصاة تحمل خوذة » .

هكذا انتقى الغيطانى من شخصيات حرب أكتوبر ، شخصية « عويس » ذلك الجندى المجهول الذى أحب مدينته حبًّا حسيًّا دون نظريات أوعقائديات . وقد رأينا كيف أحب عويس مدينته « السويس » حبا نقيًّا ، من خلال تداعى الصور الموظفة بمهارة عبر تيار الوعى والفلاش باك للتعبير عن تعلق عويس بمدينته ، رغم أن مدينته لم تعطِه شيئا على الإطلاق « عويس » ذلك الرجل البسيط . تصوره القصة من خلال صياغة هادئة لا تحتوى على كلمة واحدة فخمة أوصارخة . بل تتدفّق الصور لتشكل صورة ذلك الرجل الفقير بلا عمل . الذى أحب الخلاء والحياة بلا تطلعات ، والذى ضيّق عليه حصار العدوحياته وأنفاسه . فأخذ يشارك فى نقل الذخيرة للمقاتلين حتى انضم إلى صفوفهم مقاتلاً ومقاومًا هجمات العدوّ شجاعا لا يهرب ولا يخاف ، فليس لديه مايخسره . بل ولا تربطة أية علاقة إنسانية حميمة فليس له أسرة أو أبناء ، ولا أحد يهتم به ؛ لذا قضى حياته يهيم على وجهه فى السويس عالمه الأثير ، يتقلّب فى مهن بسيطة ، يمسح أحذية أو يمسح البلاط . يأكل أى شىء وينام فى أى مكان . هذا الرجل المغمور أعطى حياته ببساطة فداء لمدينته ووطنه ، الذى لم يعطِه حتى وظيفة فراش ، ودون انتظار مكافأة أو مجد .

وعندما خيره الضابط بين « السبوبة » حبيبته وبين الوطن . اختار الموت فداءً للوطن وانسحب من الحياة كما جاءها دون أن يعيره أحد اهتمامه ؛ لذا وصفته القصة بأنه مجرد حاجز حمى الوطن ، ومضى « تصطدم قطعة معدنية بحاجز ما » هذه بطولة الرجل العادى التقطها الفنان جمال الغيطانى فى لحظة هامة من لحظات حرب أكتوبر خلال مقاومة السويس للأعداء .

فهكذا ينتقى الفنان نماذجه البسيطة من صفوف الناس الصغار الذين يعانون ويضحّون دائماً من أجل بلادهم بعفوية وصدق وبساطة . وسنجد هؤلاء الناس الصغار الذين يعانون فى وحدة ويبذلون فى سخاء دون انتظار لجزاء أو مكافأة أو نيشان ، فهؤلاء الناس يعيشون ويموتون دون أن يذكرهم أحد ، يلتقطهم الفنان الذكى الحساس ويعبّر عنهم فى قصصه ، وتجدهم فى صور متعددة كأم الشهيد الفقيرة الوحيدة فى قصة « الوجهة » ، و « عم خضر » القهوجى الوحيد الباقى فى السويس فى قصة « مجهود حربى » والسائق الشاب عبد الرحمن محمود على فى قصة « حكايات الغريب » الذين رأينا صور عطائهم وبذلهم وفدائهم من أجل الوطن .

وتضم المجموعة القصصية « من يذكر تلك الأيام » للأديبين السوريين حنا مينه ود. نجاح العطار ، ست قصص تتراوح بين الطول والقصر وبين القصة القصيرة والقصة الطويلة ، ولكنها كلها تدخل فى أدب أكتوبرالعربى بتعبيرها الحميم عن معارك تلك الحرب العظيمة ، فبينما تقع قصة « الجبل » لحنا مينه . فى تسعين صفحة ، تأتى قصة « الجريح والدبابة » فى خمس صفحات . وقد انفرد « حنا مينه » بكتابة قصتين من قصص المجموعة « الجبل » و « الذى أبطل الفتيلة » وكتبت د . نجاح العطار ثلاثا من قصص المجموعة الأخرى : « عندما يقاتل الرجال » و « الزوجة التى لم يبتر ذراعها » و « الجريح والدبابة » . أما القصة السادسة فقد اشترك الأديبان العربيان « حنا » و « نجاح » فى كتابتها معًا بعنوان

« السمكة الطائرة » .

وقدّم الكاتبان مجموعتهما القصصية بتوضيح لظروف الحصول على وقائعها من ألسنة أبطالها المقاتلين الحقيقيين ، ومن ثم وصفا القصص بأنها لوحات قصصية تسجيلية ، وأنها « نتاج واقع وذات فى آن واحد ، واقع حرب تشرين أكتوبر التحريرية ، وذاتنا حيال هذه الحرب . الخامات من الآخرين ، والصياغة منّا ، تسجيلية فى بعض سطورها ، وابتكارية فى بعضها الآخر ، لكنها كلّها ، أمينة لما صار أو مقصّرة دونه أحياناً بكلمة بديلة هذه ترجمة عن ذات الذين قاتلوا إلى ذات الذين كانوا وراء المقاتلين ، أحاسيس معبّر عنها بكلمات ، دوّرنا فيها الرسم والتوصيل من الذين كانوا هناك إلى الذين كانوا هنا . . » .

« السمكة الطائرة »، قصة طويلة قصيرة تقع فى نحو خمسين صفحة . وهى قصة مشتركة « لحنا مينه » ود . نجاح عطار » بكل ما تعنيه المشاركة من تضافر بين الأديبين ، وهى تجربة قصصية جديدة فى مجال قصص أكتوبر العربى القصيرة ؛ لأن الكاتبين يتبادلان القص والتسجيل والرؤية من زوايا متعددة . وتصور القصة معارك الطيران العربى السورى خلال حرب أكتوبر ، من خلال وصف تسجيلى لتلك المعارك الجوية الرائعة على لسان بطلها الطيار « أ . ج » الذى أسقط خمساً من طائرات الفانتوم المعادية واثنتين من طائرات العدو الميراج ، وأصيبت طائرته المقاتلة فى معارك مرصد جبل الشيخ الرهيبة فى الجوّ وعلى قمم ذلك الجبل المهيب . ويعتمد بناء القصة على الحوار والوصف الخارجى وأسلوب أقرب إلى أسلوب التحقيق الصحفى ، الذى يتخذ طابعًا فريدًا هو مزيج من التعلم والتبسيط والتسجيل والابتكار والإبداع ومحاولة تصوير شخصية البطل من خلال مفهوم اجتماعى وسياسى نضالى ، وكشخص عادى وابن من أبناء الأمة لا يتمتع بقوى بطولية خارقة .ولا يملك سوى الوعى بقضيته والإصرار على الانتصار على عدوّه

وتحرير الأرض العربية،أما المفهوم الاجتماعى فقد جاء من انحدار البطل الطيار عن أب فلاح مناضل قتل دفاعاً عن الأرض خلال اشتراكه فى مظاهرة تطالب بحقوق الفلاحين فى أراضيهم . وقد أسهمت هذه الحادثة الهامة فى تشكيل فكر بطلنا ووعيه السياسى والاجتماعى . «كان والده فلاحًا يعمل فى الأرض . ودفاعاً عنها قتل فقبل عشرين عامًا . فى مظاهرة لأجل حقوق الفلاحين . سقط فى المعركة وكان عمر الابن آنذاك ستة أعوام . ومن جراح أبيه تفتحت فى روحه ستة جروح . وهكذا ، طفلا . عرف قيمة الأرض . معناها . يعنى الدفاع عنها . والشهادة . عند اللزوم ، فى سبيلها » هكذا تبرر القصة وتمهد للتحول فى فكر البطل الطيار وتفتح وعيه السياسى وتقرن ذلك بالتكوين الذاتى للبطل فى حبه للطائرات ورسومها وأشكالها . حتى صار يسبح بطائرته الخيالية قبل أن يلحق بالفعل بسلاح الطيران . وهنا تنساب القصة بشاعرية لتصوُّره طفلاً يركض وراء الفراشات ويصطاد العصافير . ويصنع طائرات الورق والحيطان . ويلعب الكرة . ويتسلق الأشجار والحيطان .

هذا هو البطل كما تخيلته القصة طفلاً وصبيًّا . حتى إذا جاءت حرب أكتوبر « تشرين » تفجرت كل مكوّناته الاجتماعية والذاتية وتحققت كلّ أحلام الطيران والسباحة فى الجوّ والانقضاض على طائرات الأعداء والقتال المتكافئ فى المهارة والفن . غير أنه يتميز بالإيمان بقضية الحق العربى والأرض العربية . وتبرز فى هذه القصة المشاعر القومية والرؤية القومية لحرب أكتوبر وتحرير الأرض العربية . يقول البطل : « فى اليوم العاشر من تشرين الأول كانت تجربتى القتالية الفعلية الأولى . . كانت فوق بيروت . وقد أحسست كما لو أننى أقاتل فوق دمشق . كل المدن العربية مدننا . وكل أجواء الأرض العربية أجواؤنا وحيثما كنا فيها نقاتل بالمشاعر ذاتها . مشاعر العربى الذى يحمى أرضًا عربية ومواطنين عرباً هم أهله وإخوانه . ومن هنا

تتصاعد دراميًّا وتتوتّر رواية المعارك الجوية التى ترد على لسان البطل وعن طريق الحوار المتبادل بينه وبين كاتبى القصة « حنا مينه » ود « نجاح عطار » وعبْر وصف وتسجيل لأدق معارك الطيران العربى فى القطر العربى السورى . كما عنيت القصة بتصوير مشاعر البطل الطيار قبل المعارك وخلال الاشتباكات العنيفة تصويرا إنسانيًا . فهو يخاف ويقلق ويتوتر لكن كلّ ذلك يذوب فى أتون القتال .

فهو بطل إنسانى من صميم الناس العاديين فى بلادنا العربية . جاء من قرية عادية ومن أب فلاح وأسرة فقيرة ومتزوج عن حب بمدرّسة شابّة يعيشان حياةً بسيطة فى شقة سكنية صغيرة . هذا هو التكوين البسيط للبطل الذى يوحى من ورائه الكاتبان بالإمكانيات البطولية الكامنة فى شعبنا العربى . وقد نجحت القصة فى مزج التكوين الخاص لبطلها بالتكوين العام للبطل والقضية . وفى مزج الخاص بالعام وفى تركيب الأحداث وتصاعدها الدرامى نحو التحرر من هزيمة الماضى وآثار الماضى وتجاوزها نحو معارك تحقيق الذات والانتقام من العدوّ وكشف أكذوبة أسطورته ومزاعمه عن العدو الذى لا يقهر ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن « حنا مينه » أديب البحر العربى لم يتخلّ عن البحر مجاله الأثير . فشبّه الطائرة بالسمكة الطائرة وأدار حوارًا مع البطل الطيار حول السمك والصيد والبحر فبعد أن يتحدث البطل عن لحظات الخوف والقلق والتوتر السابقة على الاشتباك . يصف لحظات الاشتباك على النحو التالى : « تتبدّل المشاعر . لكن توترًا آخر يطرأ على مدى المسافة بين الانطلاق من القاعدة وظهور الأهداف المعادية أمام الطيار . وعندما يراها ويبدأ فى تلق التعليمات من قيادته على الأرض . ومن قائد تشكيله فى الجوّ . ويسبح فى الهواء . كما السمكة فى الماء . تصبح طائرته سمكةً طائرة . همّها أن تصطاد بكلّ « الصنانير » التى معها . الأسماك المعادية من حولها . وأن تحمى فى الوقت ذاته نفسها من « صنانير » تلك الأسماك المشتبكة معها .

ابتسمت ولم أتكلم .

- ما بك . قال لماذا تبتسم ؟

راقتنى التسمية . الصنانير " لغة الصيادين فى البحر هذه

- الصيد فى البحر والجوّ واحد . ولكن صنانيرنا نحن تختلف إنها صواريخ . ومدافع . ورشاشات . فهنا أيضا لا يبتعد حنّا مينه عن عالم البحر . عالمه الأثير الذى أبدع فيه أهم رواياته

« الجبل » قصة قصيرة طويلة (٩٠ صفحة) لحنا مينه . تصوّر بالصورة واللوحة والحدث عملية تحرير مرصد جبل الشيخ على الجبهة السورية بواسطة القوات الخاصة . لقد تشكّك حنا مينه ود . نجاح العطار . بمقدمة مجموعتهما القصصية « من يذكر تلك الأيام ؟ » فى مدى تمتع القصص بفنية كاملة . وهو قلق فى غير محله ، لأن قصة « الجبل » . على واقعيتها وتسجيليتها . تتضمن كلَّ شروط القصة الفنية الجيدة . فالأحداث تتصاعد وتتعقّد وتنحل . والحوار والمونولوج الداخلى وتيار الوعى تؤدى جميعًا وظائفها بمهارة . حقًّا لقد احتوت القصة على بعض الاستطرادات التى أوقعتها فى الترهل . كحديثه عن تاريخ جبل الشيخ أو بعض التطويل غير المنضبط فى المونولوج الداخلى لبعض الشخصيات أو عباراته الخطابية عن أوهام العدو وجبنه بشكل مباشر ولكن القصة ممتعة ومشوقة ومكتوبة فى خضم الحرب . فى العاشر من شهر ديسمبر ١٩٧٣ كما أنها قصة حرب حقيقية كاملة ترصد وتسجل وتتابع عملية تحرير مرصد جبل الشيخ منذ بدايات الإعداد حتى إتمامها . بل وتصور القصة ذروتها المأساوية بصدق كامل عندما تختتم صفحاتها بوصف هجوم العدو المضاد . والمقاومة الباسلة التى أبداها الجنود السوريون فى مواجهته حتى سقوط مرصد جبل الشيخ مرة ثانية فى أيدى العدو . ومع ذلك لم يشعر بالهزيمة كما حدث فى يونيو ١٩٦٧ . فقد كانت معركة

متكافئة . والحرب كر وفرّ . فلابدّ من العودة إلى جبل الشيخ ، « وكما النبيذ كذلك المشاعر . تخبأ وتعتق . سبع سنوات عتّقوها وفى تشرين فتحوها . وكان عرس . . لم يكتمل . . بعض الأعراس تظل مفتوحة . وحين لا يبقى نبيذ ، يحولون الماء نبيذًا . . الآن من جديد ، جاء دور تحويل الماء إلى نبيذ . والآن كرة أخرى ، جاء دور تعتيق النبيذ ، وكذلك المشاعر . . المشاعر التى ستفتح يوماً وينتشى جميع المشاركين فى العرض . يا جبل الشيخ ! يا معبد حرمون ! يا قصر شبيب ! لنجيئك يومًا كما جئناك يوما ، وعندئذ لن نغادرك قط . . » ويقصد حنا بالنبيذ المشاعر المخزونة طوال السنوات التالية لهزيمة يونيو . أما العرس فيعنى به حرب أكتوبر . يريد حنا إذن تعبئة المشاعر استعدادا لعرس جديد بالعودة إلى جبل الشيخ وكلّ الأراضى المحتلة .

تتميز قصة حنا مينه ، كقصة جمال الغيطانى « أجزاء من سيرة عبد الله القلعاوى » ، بالخبرة الكاملة بواقع الحرب والتسجيل الدقيق والأمين لخطوات الإعداد والتحرك والقتال والاهتمام ببطولات رجال القوات الخاصة الذين قاموا بأخطر العمليات وأكثرها فروسية وإبداعًا . فوفّق حنا فى تصوير عملية اقتحام حصون مرصد جبل الشيخ وفى رصدها وتصوير مناعة تلك الحصون ومقاومات جنود العدو للهجوم العربى والتكوين الرهيب لمبنى المرصد ومخابئه وسراديبه السرية . وكم تمنيت أن تكتب قصة مماثلة عن عمليات اقتحام حصون خطّ بارليف بكل ما احتوته من أسلحة وتجهيزات ومقاومات .

فى قصة حنا مينه « الجبل » لامكان للبطل الفرد بل البطولة مهنة الجميع ، الضابط والجنود على السواء . فيتسابق البطلان . الضابط والجندى ؛ لتمزيق العلم الاسرائيلى ورفع العلم العربى مكانه . ويشترك الجميع فى التفكير وفى المناقشات حول الخطط والمبادرات . وعندما تستنفد المناقشات أغراضها يحسم القائد الأمر .

بل لقد صور حنا معارك صد هجوم العدو المضاد ضد المرصد بنفس الدقة التى صور بها معارك الاقتحام العربى السورى للمرصد . فقد كافح الجميع وصمدوا حتى آخر طلقة وآخر سلاح أبيض حقًا استرد العدوّ المرصد ولكنه دفع الثمن غاليًا « ثم طفق المقاتلون يتحركون فى رقعة من الأرض تتقلّص تحت أرجلهم أكثر فأكثر تخلّوا عن جحورهم الصخرية كى يتفادوا التطويق جعلوا ينتقلون من حفرة إلى حفرة . ومن صخرة إلى أخرى . . كان الشبر من الأرض يكلّف العدو قتيلاً . والتربة . أمامهم ومن حولهم . فقد تغطت بالجثث وهم يتراجعون . ويتقدمون . ويثبون بالسلاح الأبيض ويلتحمون فى معركة أدركوا أنها غير متكافئة . ولكنهم وقد صاروا فى قلبها . استبسلوا فيها . وجرحوا . وقتلوا . ولكنهم أبدًا لم يذعروا . ولم يولّوا . . ظلّوا صامدين . متكاتفين . يضربون . يضربون . يضربون . . وينزلون بالعدو الخسائر التى صمموا على إنزالها . . »

تتحدث قصص أكتوبر العربية القصيرة لغة واحدةً تتكرر خلالها عبارات تحقيق الأحلام والثأر والتحرير . هذه الروح العربية تعبّر عن وحدة الهَم العامّ . الذى صنعته هزيمة يونيو المجانية . وعن الأشواق العربية للقتال وطرد العدوّ من أرضنا العربية المحتلة . نعم فقد كانت حرب أكتوبر حربًا عربية مجيدة . حرب كلّ العرب .

التقطت الدكتورة نجاح عطار هذا الوجه العربى للحرب فى قصتها الطويلة (٥٨ صفحة) «عندما يقاتل الرجال . ويغنون فى ضوء القمر» ففى هذه القصة لا تصوّر الكاتبة بطولات المحاربين السوريين فحسب . بل توجّه عنايتها أيضًا إلى التعبير عن عروبة الحرب من خلال موقفين لاثنين من المقاتلين المغاربة . وهذا هو الجندى العربى المغربى كما صورته د . نجاح عطار فى حوار مع طبيب :

« على العتبة وقف جندىّ مغربى عملاق . أدى التحية وتقدم قائلا :

-- أحببت أن أودّعكم قبل المغادرة سيدى

– خرجوك ؟

– لم أعد أطيق البقاء . ولا أرى ضرورة له .

– سمعت إذن ؟ ولكن إلى أين ؟ وجرحك ؟

خلع المقاتل المغربى . بسذاجة مفرطة . سترته . وكشف عن جرحه وقال :

– انظر سيدى . . وضع الجرح جيد . لا يؤلمنى أبدا . وسيغيّرون الضماد فى الجبهة .

ستلتحق بقطعتك إذن ؟

- نعم سيدى لا يمكننى البقاء أكثر . أفهمت الطبيب ذلك . . هناك قد أكون مفيدًا . . أنا أتيت مجاهدًا . وقد استرحت أكثر من اللازم »

أما القصة فمكتوبة من أربعة أقسام أو أربع أقاصيص فى إطار حرب أكتوبر ومن داخل مستشفى يضم جرحى الحرب . وترد أحداث الأقاصيص عبْر حوار متبادل بين سيدة كاتبة . لا شك أنها هى المؤلفة وبين جرحى المستشفى القادمين من ميادين القتال وتسجل السيدة فى مفكّرتها ما تلتقطه من أفواه الجرحى عن أحداث الحرب وحكايات المعارك البطولية الدموية .

فى القسم الأول . « من يذكر تلك الأيام ومن ينسى هذه ؟ » . يلعب الفلاش باك بمهارة فى الارتدادات السريعة والتنقّلات بين حرب يونيو وحرب أكتوبر . فى مقارنات حيوية بين الحربين تتناول مشاعر الناس وسلوكهم وتصرفات الجنود والجرحى المختلفة تمامًا . فنلاحظ مدى هدوء الناس وانتظام حركتهم واحتقارهم لحرب العدو المادية والنفسية . وكيف يحرص الجميع على الاشتراك فى المعارك مهما كانت إصاباتهم . فتهتف الكاتبة لحرب أكتوبر « تشرين » قائلة : تشرين (أكتوبر) أيا تشرين » إيه أنت . كم بدّلت من صور وأشياء « فحرب

أكتوبر (تشرين) قد غيرت الصورة القديمة ليونيو وبخاصة الصدق مع النفس . والثقة في مصادرنا الإعلامية . وذابت الخلافات العربية وانصهرت في بوتقة الحرب والفداء . هذا الحس العربي الأصيل هو أهم ما تتميز به قصة د . نجاح عطار : « اقتربت من المذياع . أدارته : دمشق . صوت العرب . القاهرة . الإذاعات العربية توحدت . وإذاعات إسرائيل ولندن وصوت أمريكا تضامنت . جانب آخر من التلفيق الإعلامي . ليس غريبًا أن يعزف الناس عن أكاذيب الإذاعات المعادية . النار صهرت خلافات العرب . المعركة أذابت تناقضاتهم . ردمت غورًا عميقًا بينهم . أقامت جسورًا على الأنهر . ووحدت الأراضي والأرواح » .

القسم الثاني من قصة د . نجاح عطار بعنوان « الساق المبتورة والدبابات الثلاث » . والعنوان يدلّ على المضمون ؛ إذ تعرض القصة لجانب من معركة اقتحام الجولان بالدبابات ومدى أشواق الجنود والضباط لتحقيق حلم الحرب والتصدي للعدو . وهنا تخوض القصة في تفاصيل العمليات الحربية في شكل سرد وحوار بين السيدة والجريح . وتعمل د . نجاح عطار في هذا القسم من القصة . وفي قسميها الثالث والرابع أيضًا . على تصوير دموية القتال ضدّ العدوّ واستبسال رجالنا لأنهم مشحونون بقضيتهم وأحلامهم من أجل تحرير الأرض . ويروى بطل القصة الجريح وقائع المعركة وكيف جرح وكيف بترت ساقه وكيف تخلّص منها وطوح بها بعيدًا . ولكنه شعر بسعادة تحقيق الحلم بالرغم من كل آلامه . « كان تلّ الشيخة يهجره مقاتلوه اليهود . . حلم الأمس بتحرير الأرض أشهده قبل أن أموت وهذا يكفي . . الموت عذب إذا لم يكن رخيصًا أو مجانيًا . ولم يكن موتي - فكرت - رخيصًا . فنسورنا في الجوّ . وجنودنا على الأرض . يقصفون ويتقدمون . . لقد صرت أنا في المؤخرة . . حسنا . . إلى الأمام أيها الإخوة

الشجعان إلى الأمام وإنى لسعيد جدا . سعيد إلى درجة تمنيت معها لو أزحف فأشعل سيجارتى من الشوك المحترق قربى . . »

كذلك يصور القسم الثالث من « عبرات . . زجاجات . . وبقايا سندوتش » عملية هجوم سريّة دبابات عربية ضدّ العدو . كيف توحّدت أحلام المقاتلين وآمالهم وأهدافهم . وكيف تأكدت قدرات المحارب العربى بالانتصار على المقاتل الإسرائيلى الذى لا تستهين به القصة فهو يقاتل بإتقان ولكن بدون هدف أو قضية . على عكس المحارب العربى الذى يحمل قضيته فى قلبه وروحه ويتحرق شوقًا للقاء العدوّ وتحدّيه واسترداد أرضه العربية ؛ لذا فوجئ جنود العدو بالهجوم العربى وبالمحارب العربى . فتركوا بقاياهم . تدل على مدى مفاجأتهم . كبقايا السندوتشات . وتُعد الأقصوصة الرابعة تنويعاً على الفكرة الرئيسية للقصة فهى تعرض صورة رائعة لقتال الدبابات ومعاركها العنيفة مع مقاومات العدو القوية .

و« الشعرات الثلاث » قصة قصيرة للكاتب الفلسطينى « نواف أبو الهيجاء » تقوم على بناء فنى حديث يجمع بين الواقعية والتعبيرية ويستخدم الأسطورة والحلم . وأسلوب التنويعات السيمفونية على اللحن الرئيسى أو الموضوع الرئيسى فبطل القصة « سميح محمود » فدائىّ فلسطينى شارك مع عدد من زملائه فى عملية فدائية داخل الأراضى المحتلة . وقد أصيب البطل إصابات خطيرة خلال معركة مع العدو دامت ستّ ساعات بعد أن غادره رفاقه معتقدين باستشهاده . وتصوّر القصة البطل الفدائى وحيدًا محاصرًا مفتقدًا لسلاحه ورفاقه وأهله

يردد البطل فى مونولوجه الداخلى : « أنت جريح ووحيد ومحاصر . ذراعك اليمنى شبه مشلولة . وكتفك الأيمن تنزف باستمرار ومنذ ساعات . أما الرباط الذى صنعته من قميصك الداخلى فلم يفلح فى الحدّ من تدفّق النزف . أنت جريح . يجب أن تدرك ذلك ، رغم أنك حاربته قرابة ستّ ساعات معتقدًا أنك قد تحلق من

الوهم حقيقة . أنت جريح ومحاصر ووحيد وعيناك تذوبان . من المؤكد أنهما تتوهجان بالرؤية . لكنها توهجات شمعة قبل أن تذوب » . هذا هو الخط الرئيسى فى القصة . أما التنويعات فتثرى البناء القصصى بتيار الوعى والأسطورة والتنقل بين الأمكنة والأزمنة المختلفة فى عدّة مقاطع يحمل كلّ منها عنوانًا مستقلاً

ويقصّ حكايات غير واقعية فى أسلوب تعبيرى ووقائع ممكنة وتفاصيل واقعية . فالبطل يعود إلى مدينته بعد غيبة سنوات طويلة . ليجد الرءوس مقطوعة ومعلقة على أسوار المدينة . وليجد الصمت والرضوخ يسيطران على أهلها وناسها . ويعرف أن ذلك كلّه من صنع الغزاة ويسمع من حكيم المدينة أن لا حلّ إلّا بالعثور على السيف المسحور للانتصار على الغزاة وتطهير المدينة المحتلة وتحريرها . وعبْر وقائع تمزج بين الواقع والأسطورة يحصل البطل على الشعرات الثلاث التى تحقق له السيف المسحور غير أن البطل الفدائىّ يكتشف كذب الأسطورة وأن الشعرات الثلاث لا تقدّم له سيفًا مسحورًا أو بندقية . وهكذا عاد البطل الفدائى من رحلته خاليًا غير أن حوارًا يدور بين أهل المدينة الصامتة يتمخّض عن ضرورة تقديم العون المسلح للبطل المحصور وتحدّى العدو . وهكذا يجد الفدائى بندقيته ويعثر على السيف المسحور بين صفوف الناس وفى أرض الواقع وليس بالأساطير . وهكذا يكبر البطل الفدائى ويعرف أن طريقه هو بالناس والسلاح . فهذا هو أهم دروس حرب أكتوبر .

القصة القصيرة ليست حكاية أو تحقيقًا صحفيًّا . ولكنها فن أدبى حساس فى استجابته للأحداث والمشاعر ، وهى فن مركز مكثّف أقرب إلى الشعر ؛ لذا فإنها تتميز بقصر الزمن وليس قصر الحجم فحسب . ومحدودية الشخصيات والخصوصية . أى التعبير عن العام من خلال الخاص ؛ فالمناقشات العامة تفسدها ، وعندما تعبّر القصة القصيرة عن العصر أو عن الحرب فإنها تفعل ذلك

من خلال لحظة أو موقف . ومن هنا وصفت بأنها فن اللحظة الهامة . . كما ذكر الناقد الأيرلندى « فرانك أوكونور » فى كتابه « الصوت المنفرد » وإن اختيار هذه اللحظة من أدق خصائص القصاص الذكى المبدع ، تلك اللحظة الخصوصية التنويرية التى يمكن أن تكشف عصرًا بأكمله ، إذا أحسن اختيارها . وهكذا فإن قالب القصة القصيرة المحدود والمتميز لا يسمح بالمناقشات العامة أو الشخصيات الزائدة أو الوصف العام أو التعليقات المباشرة .

هذه الأسس لفن القصة القصيرة ، نفتقدها فى كثير من قصص أكتوبر العربية القصيرة ؛ لأن الحماسة طغت عليها فأربكت فنيّة القصة القصيرة وطوّلتها إلى تحقيقات صحفية تغص بالوصف السطحى الخارجى والعبارات الخطابية الصارخة وأسلوب التقارير المباشر . وتمثل كل هذا بأوضح صورة فى مجموعة عبد الفتاح رزق « قصص الدم والرصاص » ، ويبدو أن كاتبها شعر بمستواها الفنى الضعيف فبرره بكلمة فى المقدمة قال فيها إنه « لا مجال للخيال فى قصص الدم والرصاص » فجر الأربعاء الرابع عشر من رمضان ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ – وسيارات الجيب تتحرك بنا – مجموعة من المراسلين العسكريين – إلى جبهة القتال . وكان الواقع وحده هو الذى يتكلم ! » وهذه العبارات توضح أكثر مما تبرر ؛ لأن المجموعة كلّها مكتوبة بقلم مراسل حربى يجرى التحقيق الصحفى حول وقائع العبور المعروفة للجميع ، والتى تنتظر الفنان والأديب لينفذ إلى ما تحت السطح الخارجى للناس والأشياء ويتعمقها ويصوّر الحرب من خلال لحظات خاصة وشخصيات متميزة ، ولكن الحماسة والمباشرة تغلبتا على الفن . فالكاتب كثيرًا ما يتحدّث حديثا مباشرًا عن رحلته إلى سيناء أو يدير بعض الأحاديث الصحفية مع بعض الجنود المقاتلين أو يسبّ العدوّ ويتهمه دائماً بالجبن ، فكلّ الجنود الأعداء جبناء وضعفاء ، وكل جنودنا أبطال وشجعان ، وهكذا بسذاجة شديدة ينقسم كل شىء إلى أبيض

وأسود . وكأن جنودنا حرروا سيناء بدون مقاومة وفى رحلة عبور سهلة فما إن يظهر جنودنا حتى يفر جنود العدو . وهكذا رفع جنودنا علمنا ببساطة وسهولة . كما يقرر عبد الفتاح رزق فى هذه الفقرة : «كانت البداية هى نزع علم العدو ورفع علم مصر والمفروض أن البداية هى الهجوم وانتظار المقاومة أو حتى الهجوم المضاد . ولكن القابعين وراء التبّة العالية . كانوا كأنما فقدوا الرءوس . فارتعشت الأيدى . وارتبكت الأقدام . وهرولوا مبتعدين عن التبّة . . » هكذا أفسدت الحماسة والعجلة مجموعة عبد الفتاح رزق « قصص الدم والرصاص » فيصح أن تسمّى بتحقيق صحفى من أرض المعركة .

أمّا المجموعة القصصية الثانية « من وحى أكتوبر » . التى تضمنت قصتين لاثنين من الأدباء الجدد صلاح عبد السيد وعزيزة صادق . فإنها تتجاوز مجموعة عبد الفتاح رزق وتتقدم قليلاً فى طريق القصة القصيرة . فبدلاً من العمومية والخطابية والمباشرة عند رزق عنى الكاتبان بتقديم شخصيات متميزة ومنفردة تتجسد من خلالها حرب أكتوبر . ولكنهما لم يتخلّصا تمامًا من الأوصاف الخارجية والعامة أو المبالغة فى تصوير البطولات الخارقة . فتركز قصة « خضر » لصلاح عبد السيد على بطولة الرجل العادى البسيط الفقير كما جسدته شخصية بطل القصة « خضر » الذى افتدى قريته التى لم تعطه شيئًا ولم تعترف حتى بشرعيته ، ومع ذلك فقد صمم على حمل قنبلة ألقتها إحدى طائرات العدو على « وابور المياه » بالقرية ، ولم تتفجر ، فغامر بحياته وتخطّى كلّ من تطوّع من شباب القرية لإبعاد القنبلة عن « وابور المياه » ومع انفجار القنبلة بعيدًا عن هدفها تفجرت عواطف القرية نحو ذلك الرجل البسيط المجهول واعترف أبوه ببنوّته . هذه الحكاية البسيطة أفسدها كاتبها « صلاح عبد السيد » بأوصاف خارجية مستهلكة للحياة فى القرية . كما أن الأوصاف الأسطورية المبالغ فيها لشخصية « خضر » كرجل قوى

جبّار لم تتّفق مع طبيعته كرجل عادىّ وحيد فهو يصفه بأنه « غير آدمى . وأنه عملاق » يسد بقامته المديدة وجه الزقاق . وأن « رأسه ضخم كأنه يحمل داخلها كل أسرار الحياة . . عيناه واسعتان كأنما السماء قد اختصته بهما ليرى أكثر ممّا يرى الآخرون أنفه كبير . . كبير ومفلطح . . ليستطيع أن يشمّ رائحة الشيء البعيد . الراقد فى الأغوار . . المختفى تحت طبقات الكذب والزيف مهما غالوا فى إخفائه » هذه الصفات الأسطورية التى تحاول أن تسبغ على شخصية « خضر » بطل القصة قدرات خارقة أكثر من قدرات الناس العاديين ، لا تتّفق مع تكوين شخصيته كابن غير شرعى وكرجل وحيد بسيط . هذه وغيرها من الأوصاف الخارجية لو تخلص منها الكاتب ، وقصر قصته على مواقف أبناء القرية من حادث إلقاء طائرة معادية لقنبلة على محطة المياه بالقرية ، لجاءت أكثر توفيقًا فى التعبير عن حرب أكتوبر وبعثها للناس فى كل مكان .

وتحاول عزيزة صادق فى قصتها « أشعة الدفء الخريفية » أن تبين عظمة حرب أكتوبر من خلال عرضها لصور هزيمة يونيو وإلصاق أحداث العبور والقتال العنيف بآثار الهزيمة وتداعياتها ، وذلك عن طريق ذكريات تنثال على رأس بطلة القصة المهاجرة من إحدى مدن القناة . وتبالغ القصة فى الأوصاف العامة لأثر التهجير على مشاعر الفتاة وحياتها . حتى لتستغرق معظم صفحات القصة فى ذكريات متناثرة عن البيت والمدينة والأسرة والأصدقاء والصديقات . ثم تقطع هذا السيل المتدفق من الذكريات بسماعها لأخبار معارك حرب أكتوبر فى مستشفى عسكرى . وهى فى تعبيرها عن الحدثين ، هزيمة يونيو وحرب أكتوبر ، لا تخرج عن العام والخارجى رغم محاولتها الاقتراب من الخاص ، عن طريق شخصية بطلة القصة المهاجرة . غير أنها لم توفق إلاّ فى حشو قصتها بعبارات عامة وحكايات فرعية زائدة على مقتضى البناء القصصى والحكايات لأنها تصيب القصة بالتفكك والترهل وتعرقل

نمو حدثها أو شخصيتها كما تضعف من تعميق اللحظة أو الموقف فى القصة

فى قصتى «بعد كل هذه السنين» و «أمسية الهازلين» للدكتور «نعيم عطية» توجد هزيمة يونيو وحرب أكتوبر أيضا . وفيها أيضا حديث عن الابن المقاتل الغائب والأم المنتظرة أبدًا لعودته والتى لم تعترف يوما بموته فى القصة الأولى «بعد كلّ هذه السنين» ، تنتظر الأم ابنها ورفيق حياتها الوحيد الذى ذهب إلى حرب ١٩٦٧ ولم يعد . وظلّت تعيش فى بيتها ترفض الاعتراف بموته أو استشهاده وترفض أى معونة من الحكومة لترميم بيتها باعتبارها أم شهيد ولكن حرب أكتوبر غيرت من موقفها فقد قررت أن تبيع البيت بحالته وأن تذهب لتعيش على تراب الأرض المحررة فى سيناء حيث اعترفت أخيرًا باستشهاد ابنها وعرفت أنه دفع حياته ثمنًا لتحرير الأرض . قائلة : «الحمد لله عادت إلينا الأرض التى دفع ابنى ثمنها ، ألا نستحقها الآن؟! سأموت قريرة العين ؛ لأننى فى الأرض التى مات عليها ابنى . إلى جواره . سأُدفن . كفانى العذاب الذى قاسيت ستّ سنوات . بعيدة عنه» وهكذا تنتهى هذه اللوحة القصصية القصيرة .

أما فى قصة «أمسية الهازلين» فالحديث يدور بين مجموعة من الأصدقاء داخل قاعة بإحدى فنادق القاهرة الفاخرة ذات ليلة من ليالى حرب أكتوبر . حيث الضوء فى الداخل والظلمة فى الخارج . وتستعرض القصة أنماطًا من الحاضرين وسلوكهم ومفاهيمهم وأحاديثهم الثقافية الرفيعة ونظراتهم الاستهلاكية المترفة . غير أن أحاديث الحرب تتسلل إلى جلستهم فيتحدثون عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ التى جاءت لأن الضباط يرسلون لدراسة أدق الأسرار العسكرية . ثم يعودون ليعيّنوا فى وظائف مدنية مغرية بالشركات والمؤسسات . أما حرب أكتوبر فترد فى ذاكرة راوى القصة الذى يتذكر أخته المنتظرة لعودة ابنها الغائب فى حرب أكتوبر . «وعاد ذهنى إلى ابن أختى المجند الذى لم تصل إلينا أخبار عنه . قيل إنه لابدّ من

عبروا القناة . وقيل لنا إنه لابدّ ممن بقوا فى مدينة السويس . . وقيل لنا أيضا إن أولئك الذين عبروا سيناء أفضل حالاً . «كانت هذه الأفكار تتداعى فى رأس الراوى بينما أمسية الهازلين تمضى مع أحاديثهم عن « برتراندرسل » وغلاء الويسكى وبعض المشكلات الأقل أهمية كسلسلة المفاتيح ومقبض الساعة . . حتى ينهى النادل أمسية الهازلين بإعلان ساعة الإغلاق » . فهل قصد د . نعيم عطية إلى تعرية بعض الناس المنعزلين عن قضايا وطنهم الحيوية فى أتون حرب أكتوبر؟

فازت قصة « مأمورية » لأحمد أحمد ماضى ، بالجائزة الأولى فى مسابقة الهيئة العامة للفنون والآداب . وجاء اختيارها فى محله لأنها قصة فنية تفصح عن تمكن كاتبها ، الذى أقرأ اسمه للمرة الأولى ، من الأداء الفنى وتميزه بثراء معلوماته عن الواقع المعبّر عنه ، معارك حرب أكتوبر ، ودقّة اختياره للحظة الهامة المعبرة عن حرب أكتوبر ، دون خطابية أو مباشرة أو صراخ أو عمومية .

فقد اختار القاص ، أحمد أحمد ماضى من أيام حرب أكتوبر المجيدة ، لحظة فى اليوم العشرين من شهر أكتوبر . وهى لحظة فاصلة لأنها تقع على الحدود الفاصلة بين معركة ومعركة ، أو بين معارك ماضية ومعارك مقبلة . وقد اختار قائد الوحدة « الضابط إبراهيم » ، لدى عودته من المستشفى بعد التئام جروحه من المعارك السابقة ، وكلّفه بجمع حاجيات زميله وصديقه الشهيد « الضابط هشام » وحملها إلى أسرته ، وقضاء الليلة مع زوجته وأسرته ، تمهيدًا لعودته إلى عمليات اقتحام دفاعات العدو فى الثغرة بالتعاون مع القوات الخاصة . هذه هى اللحظة الهامة المضيئة التى تضىء حرب أكتوبر بأسرها : فتصور المعارك والبطولات بلغة هادئة تنساب مع تيار الوعى لدى الشخصيات والعلاقات الإنسانية والمعارك الحربية والبطولات . يذهب « الضابط إبراهيم » مع الجندى « بحراوى » فى تلك « المأمورية » الصعبة الدقيقة ، لتقديم العزاء لأسرة صديقه الشهيد وتسلم أشيائه

ونقوده وخطابات زوجته . وطوال المأمورية يدور فكر « إبراهيم » ويستعرض الأحداث والذكريات التى طالما ربطته بصديقه الشهيد « هشام » ؛ قصة حبهما وزواجهما معاً . علاقاتهما الأسرية . حتى تتم لحظة المواجهة الدقيقة مع أسرته التى ينوب عنها والده . ليحدثه بأعصاب مرهقة عن ابن الشهيد الذى لم يزل فى بطن أمه والذى يجب أن نعمل على تأمين مستقبله . قائلا : « ألم تعثروا على بوليصة تأمين فى أوراقه ؟ . . نريد أن تتهيأ لولده حياة معقولة . . » هذا هو المستقبل الذى مهده الشهيد للجيل الجديد بدمه . وتأكيدا على هذا المعنى . بالتبشير بمستقبل أفضل بعد معارك حرب أكتوبر . ويكرر القاص حكاية الحمل مع الضابط « إبراهيم » عندما يذهب إلى بيته فيعرف من أمه بخبر حمل زوجته ويدور الحوار بين الأم والأب حول تسمية المولود الجديد « بنصر » أو « انتصارات » : « أوقفته أمه بإشارة ضاحكة .

– على مهلك . . فأنت فى هذه المرة ستحتضن اثنين مرة واحدة . لم يفهم للوهلة الأولى . . ولكنه قبل أن يتأمل العبارة ثانية لاحقته أمه وقد تهلل وجهها كلّه بابتسامة عريضة . .

– مبروك « نصر » فى الطريق . .

وأضاف والده من فوق مقعده البعيد :

– أو . . « انتصار » . .

واقترنت هذه النبوءة بالفجر الجديد بحديث قائده عن المعركة القادمة الصعبة « لتكن هنا فى ظهر ما بعد الغد . . المهمة التى تدربنا عليها فى الأيام الأخيرة سننفذها فى القريب العاجل على مشارف الثغرة . . سنعمل بالتعاون مع قوات الصاعقة . . سنفتح لهم عدة ممرات فى حقول ألغام العدوّ . . ستكون المهمة ليلية . . سنستخدم الطوربيد . . فالحقل الذى زرعه العدو كثيف وبعمق يزيد على

المائة متر . واضح أنه خائف بعد أن حرمته مدفعيتنا من عمل ساتر ترابى بأى ارتفاع فى الحد الأمامى لقواته ..» .. هكذا صور الفنان «أحمد أحمد ماضى» لحظة هامة من حرب أكتوبر ؛ لحظة تنويرية تكثف المعارك العنيفة والنصر المحرز بدماء الشهداء وبطولاتهم والمستقبل الأفضل المرتقب للجيل الجديد بعد حرب أكتوبر .

«سوف يهدم البيت الطينى وينهض بيت آخر من الطوب الأحمر . تتزوج رشيدة ويتخرج حسام وتقف القطارات السريعة فى محطة البلدة وتأتى الكهرباء . . مازالت الطائرات تشقّ بطن السماء كأنصال السكاكين لكن كل شىء قد توحد . عندما تبدأ معركتى يكسبها الجميع هنا وهناك . وسوف يعلن بائع الجرائد الأعرج عن كلّ شىء فى وضوح ، يغمس ساقه الخشبية فى الألوان ويرسم طائراً خرافيًّا كبير الحجم ، وجوادًا أزرق لا يكف عن الصهيل . . وعندما نصل إلى مواقعنا الجديدة سوف نقيم دُشمنا ونضبط زوايا الضرب ، وتظل المعركة دائرة حتى نعيد كلّ شىء . . » .

هذه الكلمات تلخص رؤية محمد المنسى قنديل لحرب أكتوبر فى قصته «سوف نعيد ترتيب كل شىء . » ، فالحرب بعث جديد وتحقيق لكل الأحلام ، وتردد شخصيات القصة فى حين تقوم بأعمال العبور ، بأنهم يحاربون فعلاً ، ولا أحد يحلم ! ! فها هى ذى الأحلام تتحقق والبيانات العسكرية تتوالى والحرب تدور . النار والبارود والدم تحرق كلّ آثار الهزيمة تمهيدًا لإعادة ترتيب البلاد ، سوف تستمر المعركة حتى يتخلق المجتمع الجديد خاليًا من كلّ المشاكل والهموم ، تلك الهموم التى أفاضت القصة فى تنويرها بالمونولوج الداخلى للشخصيات المقاتلة وبالتنقل بين الأمكنة والأزمنة ، فالقصة مكونة من ثلاثة أقسام :

فى القسم الأول نرى أعمال الحرب من داخل عملية العبور الجسورة . رؤية

واقعية بدون بطولات خارقة . ولكنها تحقيق لأحلام طال اختزانها . تصور القصة عملية العبور بكل مشاقها وأهوالها . الجسر يتعرض للقصف المستمر من الطائرات . القناة تتحول إلى اللونين الرمادى والأحمر رجال الدفاع الجوى يتصدون بعنف للطائرات العدوة المغيرة . الكل مصمم على حماية الجسر ومع ذلك أصيب مرة واحدة بقنابل الطائرات وأصلح تحت وابلها فى نصف ساعة . « سوف يبقى هذا الجسر للأبد » هكذا قال أحد الجنود . عندما تم العبور بدأت مشاق الساتر الترابى . حدث ارتباك فى حمّى الخوف الجماعى . نعم فهم بشر لا يتمتعون بقوى خارقة . يحركهم إيمانهم العميق بتحرير تراب الوطن وإعادة تشكيله من جديد . بل لقد صور القصاص شخصية المحارب « أحمد » وشعوره بالوحدة أمام الأجهزة الحربية الدقيقة . وخلال المعارك ينساب تيار الوعى ليصور كيف تأزمت الحياة لأسرته بتأثير هزيمة يونيو المروعة . وكيف سيطرت تبعاتها على الحياة العامة . إنه يفكر فى قريته المنتظرة فى صبر . وفى أخته التى لم تتزوج بعد ؛ «منية عياش . كتلة الطمى والخضرة التى تنتظر بلا كلل . رشيدة . . يا أختى الصغيرة . كيف يمكن أن تضاء مصابيح الزفاف والطائرات ترصدنا » .

فى القسم الثانى من قصة محمد المنسى قنديل ترى الجانب الملوّث البعيد عن أرض المعركة ونارها . والذى يبغى استغلالها تجاريا من خلال فن السينما . ينتقل المشهد إلى سجن حيث تجلس إحدى ممثلات السينما بتهمة القوادة وإدارة « بيت سرى » تتجمع فيه كلّ سيئات المجتمع . يعرض عليها مخرج وكاتب سيناريو فكرة فيلم عن قصة ضبطها ويختم بكلمتى ٦ أكتوبر . وعندما تسأله كيف يلصق ٦ أكتوبر بهذه الفضيحة . يجيبها قائلا : « هذه نهاية الفيلم بعد أن ترتدى حوالى خمسين فستانا مختلفًا . ونشاهد أكثر من عشر رقصات عارية . فى عز الانفعال تقوم الحرب . قال » و . « هذا تطور طبيعى وتغير الحرب كل شىء . هنا يظهر

معدنك الأصيل . ويظهر أيضًا قلب الجميع الطيب . وسينتهى الفيلم وأنتِ فى المقدمة وصفّ البنات خلفك ، تقفن فوق خط بارليف تهتفن بأحدث الأناشيد الوطنية . وتأتى كلمة النهاية كالحلم السعيد » . هكذا صورت القصة فى قسمها الثانى أحلام القوادين والتجار فى استغلال كل شىء لصالحهم .

أما ثالث أقسام القصة فهو مرير حقًّا لأنه يصور مجتمع المهجرين الذين غادروا مدنهم وبيوتهم لينزووا فى أكشاك ويكدّسوا فى بيوت متهالكة أو أفنية مهجورة يلعقون مشاعر الغربة ويعانون الفقر والمهانة . وقد جسدت القصة هذه الحياة المهينة من خلال مأساة سقوط فتاة فقيرة فى قبضة تاجر يستغل مأساتهم جميعا ويشترى كلّ شىء بأبخس الأثمان حتى لم يعد يتبقى لديها شىء سوى شرفها فاشتراه أيضاً شراء أقرب إلى الاغتصاب .

تدور أحداث القسم الثالث المأساوية فى الزمن الماضى القريب . كجزء من إدانة الهزيمة وكاحتجاج على مجتمع المهَجّرين قبل حرب أكتوبر ، وأحسب أن حرب أكتوبر قد محت هذه الوصمة وأعادت المهجرين إلى بلادهم . وقد استوعبت قصة « محمد المنسى قنديل » ؛ « سوف نعيد ترتيب كلّ شىء » ، هموم المجتمع المصرى بعد الهزيمة وجسدت رؤيتها لحرب أكتوبر كمعركة كبرى وبعث جديد وأمل فى مجتمع جديد .

فى قصة قاسم مسعد عليوة ؛ « لا تبحثوا عن عنوان . . إنها الحرب . . إنها الحرب » . نتابع حرب أكتوبر فى داخل بيت شوهته القنابل مع جندى جريح وشاب من رجال المقاومة الشعبية وفتاة تعمل موظفة فى المدينة . يعتمد شكل القصة على تصوير لحظة إغارة العدوّ الجوية الليلية على المدينة من خلال الرصد الدقيق للأشخاص الثلاثة والأشياء البسيطة الموجودة حولهم . وقد بالغ القصاص فى الوصف الخارجى لتلك الأشياء . كما فعل بوصفه للبندقية التى يحملها الجندى

دون مبرر فنى أو موضوعى . ولكنه وفّق فى تصوير عنف الحرب متمثلاً فى قنابل الطائرات وصواريخ الدفاع الجوى والقذائف المضيئة والدماء التى تغمر وجه الجريح وجسده . وخلال تلك الأهوال نسج القاص خيوط علاقة حُب بين الموظفة ورجل المقاومة الشعبية بعد أن أسعفا الجريح ونظّفا جروحه . فيشير الكاتب إلى قوة واستمرارية الحياة بالرغم من كلّ دمار الحرب فالحب يورق حتى فى الدماء .. « مع إطباقة الظلمة أحست بالتوتر يسرى فى كتفه وباضطراب شديد يعتريها . كل شخير الجريح قد خفُت للغاية بينما شعرت بأنفاس الفتى تلفح وجهها . فأغمضت عينيها واستسلمت لشفتيه فى حين عبَر وميض الانفجارات متتابعة النافذة المهشّمة لينعكس على جدران القبو أشكالاً حمراء غريبة » فهى قصة بسيطة تصوّر لحظة محدودة وتحاول أن تعمقها . ولكنها ليست فى كثافة قصص جمال الغيطانى ومحمد المنسى قنديل الناطقة بوعيهما الاجتماعى والسياسى ومهارتهما فى الأداء الفنى

القصة التالية من قصص حرب أكتوبر القصيرة . كتبها إبراهيم عبد المجيد بعنوان « تعليقات من الحرب » . وهى قصة تقول ما تريده دون خطابية أو مباشرة . وتعتمد على عدة أساليب فنية من المونولوج الداخلى إلى تيار الوعى إلى التعبير بالصور إلى الحوار القصير والرمز . فتنتقل القصة مع بطلها من رؤية النكسة القائمة وتداعياتها إلى أحداث العبور وأعمال الفداء فى حرب أكتوبر . فتبدو قسوة هزيمة يونيو دافعةً لأعمال البطولة الانتحارية التى حققها شهداؤنا . ينساب تيار الوعى عبر ذاكرة البطل لاسترجاع وقع هزيمة يونيو على روحه ونفسيته فى رحلة له إلى ألمانيا الغربية : « يومًا ما منذ ثلاثة أعوام كان فى أوربا فى رحلة صيف ضمن أفواج الطلبة . يومًا ما أيضًا خلال عمله فى ألمانيا الغربية شاهد على شاشة التليفزيون فيلمًا عن حرب يونيو الحزين .. كان كلّ مشهد كفيلاً بسحق إرادته فى

الحياة . ليلتها بكى كثيرًا فى حجرته . لم يذهب إلى عمله فى الصباح . أحس أن تاريخه كلّه يئن تحت آثار تلك الهزيمة . . » وتصور القصة أيضًا « شبل » بطل مظاهرات ١٩٦٨ المنادية بمحاكمة المسئولين عن النكسة . وكيف حجز (شبل) دبابات الأعداء بلفّ جسمه بشحنات المتفجرات : « قام شبل بإلقاء نفسه تحت الدبابة الأولى بعد أن لفّ نفسه بأحزمة الديناميت والقنابل اليدوية المخترقة للدروع . . انفجرت الدبابة الأولى انفجارًا رهيبا . . رغم اتساع الحركة للمناورة توقف الرتل . . وفوجئنا بالدبابات تفتح من أسفل وأعلى ويقفز منها الجنود (الأعداء) . هكذا صور القاص إبراهيم عبد المجيد فى قصته « تعليقات من الحرب » معارك حرب أكتوبر كثأر وانتقام من هزيمة يونيو وعبرت عنها القصة فى عملية استشهاد « شبل » بطل المظاهرات الرافضة لهزيمة يونيو . وكلمات أحد مقاتلينا الذى « وقف يومًا على تلّ مرتفع ووجهه إلى الريف ينادى الوطن : إنى ابنك . . إنى أجىء إليك . . إنى أطهرك . . إنى أجعلك حيًّا . . إنى أجمع لك عظامك
لقد ضربْت لك ذلك الذى ضربَك لقد انتقمت من الذى صنع بك شرًّا »

كذلك يستمد القصاص محمود عبد الوهاب . فى قصة « عن العبور » رؤيته من العبور . فيراه عبورًا من يأس الأموات فى يونيو إلى قتال الأحياء الشرس ويثير من الجسور الانطباعات والدلالات والرموز التعبيرية . ويرتبط العبور والاشتباكات العنيفة مع الأعداء بالانتقام لهزيمة يونيو واسترداد الكبرياء . الوطنى والقومى . وتقيم القصة بناءها التعبيرى على أقسام تحمل أنباء حرب أكتوبر والعبور والقتال : « القوات الخاصة تهاجم فقط المقاومة » . « قوات الجيش تعبر إلى سيناء » . الاشتباك مع قوات العدو » . « المعركة تزداد عنفا » . « معارك لم يشهدها من قبل ميدان قتال » . . ويرى الكاتب فى عنف الاشتباك مع قوات العدو انعكاسًا لسنوات الهزيمة والانتظار : « تباركت يا حقدنا المكبوت هاقد

منحتنا شراسةً إن تكن قصيرة العمر ساعة الهجوم فقد يطول عمرها ساعة الصمود . تباركت يا أعلامنا المقدسة ها أنت ترتفعين من قمم عالمك القديم لتمنحي أبناء هذا الزمان لحظات غالية من كبرياء شحيح . . »

أمّا قصة « الخروج من حفر الدفاع السلبى » فهى قصة مباشرة كتبها الجندى المقاتل حسن عطية أحد المقاتلين بصواريخ « سام ٧ » الذين أمّنوا العبور لقواتنا الباسلة واصطادوا طائرات الأعداء اصطياداً . وأما حفر الدفاع السلبي فهى الحفر التى يختبئ فيها المجندون الجدد قبل إتمام تدريبهم ليراقبوا فى سلبية ما يدور حولهم من مناورات عسكرية يقوم بها زملاؤهم القدامى فى القوات المسلحة . . وعندما جاء يوم السادس من أكتوبر قفز بطل القصة مع رفاقه من حفر الدفاع السلبى والمناورات والتدريب ، إلى وقت الفعل والمواجهة على حافة القناة يحتضنون صواريخهم « سام ٧ » ويطهرون سماء العبور من طائرات الأعداء . . وحين جرب بطل القصة متعة الفعل والانتصار على الأعداء فكّر فى ربع قرن مضى من حياته ، بل ربما هو كل حياته ، فوجد نفسه من جيل أمضى حياته فى حفر الدفاع السلبى بلا عمل أو فعل ، أو بالأصح جيل محروم من فرصة إثبات ذاته . وعندما جاءت النكسة نسبت إليه ظلماً ، حتى حانت ساعة اشتعال الشرارة فتحققت ذاته وصار لوجوده معنى أقوى من كل الكلمات والشعارات . غير أن الكاتب يطلق هذه الأفكار بتقريرية ومباشرة وتطويل واستطراد مما يتعارض مع فن القصة القصيرة الذى يتطلب الإيجاز والتكثيف والتصوير . فيكتب قائلا : « . . كنت أردد دائماً : أنا ابن هذا الجيل ، الذى عاش حياته حتى الآن على هامش الحياة . لم يطلب منه أن يشارك فى صنعها ، ورفض له أن يضع بصماته على مسيرها . ويخطط لمسيرها . . . جيل نعتوه بجيل النكسة وهو منها براء . . جيل ذاق مرارة الهزيمة دون أن تكون له يد فى صنعها . . جيل يحمل قيمه ومبادئه فى أحضانه ، سائرًا فى

طريقه انتظاراً للحظة الشرارة . . وجاءت لحظة اندلاع الشرارة . جاء ٦ أكتوبر جاءت التجربة . وخرجنا جميعاً من حفر دفاعنا السلبية . خرجنا نشارك فى صنع الحياة . بالحب نستكشفها . وبالإرادة نعيد تشكيلها مرة أخرى من أجل إنسان جديد . وحتى عندما أراد القصاص المقاتل تصوير نجاح البطل فى إسقاط الطائرات الإسرائيلية بصواريخه فإنه واصل أسلوبه الخطابى المباشر واختتم قصته بختام تقريرى طويل عن التغييرات التى أحدثتها معارك حرب أكتوبر فى الناس والمقاتلين .

وبعد . ليست هذه هى كلّ القصص العربية القصيرة التى كتبت عن حرب أكتوبر ، فتوجد الكثير من القصص المنشورة التى لم نتناولها لأن دراستنا تقوم على اختيار النماذج القصصية وليس المسح أو الحصر أو التأريخ للقصة العربية القصيرة . وتبرز ملاحظتان حول قصص أكتوبر العربية القصيرة . الأولى هى أن غالبية الكتاب من الأجيال الأولى لم يكتبوا رؤيتهم القصصية لحرب أكتوبر والمنطلقة من وحيها . والثانية أن الكثير من القصص القصيرة التى كتبت عن حرب أكتوبر . ومعظمها لم نتعرض لها فى هذه الدراسة . تبدو وقد وقعت تحت تأثير الانفعال والمواكبة السريعة . مثل القصة الأخيرة . فجاءت أقرب إلى الانطباعات والمقالات القصصية والصور السريعة منها إلى فن القصة القصيرة .

حرب أكتوبر
فى الشعر العربى الحديث

فجّرت حرب أكتوبر قصائد ودواوين الشعراء العرب . فى مصر وسائر أقطار الوطن العربى . وتدفّقت معارك حرب أكتوبر عبر قصائد الشعر العربى الحديث . على اختلاف اتجاهاته الفنية والسياسية والاجتماعية . وكان الشعر هو الفن الأدبى الأول فى حصاد أدب أكتوبر العربى . كما هو الحال مع الشعر العربى دومًا فى الحروب والمعارك . فى المعارك وحروب المقاومة . ومنذ نكسة يونيو أثبت الشعر العربى زيادته لأنواع التعبير الأدبى الأخرى . كميا وكيفيًا . وفى معارك حرب أكتوبر أكد الشعر العربى الحديث دوره الريادى . فكان ينطلق مع طلقات الرصاص وأكاد أقول بنفس سرعتها ضابطا إيقاعه بإيقاعها . وكما فجرّت نكسة يونيو شعر الغضب والثورة . كذلك فجرت حرب أكتوبر أشعار الحرب والنضال والثورة .

فجذبت حرب أكتوبر الشعراء إلى أتون معاركها الواقعية التحريرية الملتهبة . وأنزلتهم من تهويمات الرومانسية والنرجسية والذاتية وصراعات المثقفين وحذلقاتهم ، إلى صميم الضمير الوطني والقومي والاجتماعي . وأبدعت الكثير من الصور الشعرية الجديدة ، التي لا تأنف من الوضوح والرغبة في التوصيل والإيمان بدور الشعر في معارك التحرير الإنسانية وبالتزامه بقضايا وطنه وأمته . وبعدم تغليب الغموض والتقعر والترفع عن الجماهير وقضايا الناس الملحة . فصار الشعر سلاحاً فعالاً من أسلحة حرب أكتوبر التحريرية . ولم يعد مجرد شقشقة وترف وتسلية وبُعد عن قضايا الوطن الكبرى وهموم الناس العامة . بل صار مشاركة في هذه الحرب وتلك القضايا والهموم .

ومن هنا اكتسبت صُوره الشعرية الواقعية التي استمدتها من معطيات معارك حرب أكتوبر وامتزاجها بوجدان الشعراء ، فاتصل ضميرهم بالضمير الجمعي العام . وتدفقت دماء المناضلين والشهداء في أرض المعارك وميادين النضال والبطولة . لتحرِّر الأرضَ المغتصبة ، وتشكَّل الشعر العربي الحديث تشكيلاً جديدًا . يمزج بين الخاص والعام ، كما هو الأدب الأصيل والفن الأصيل . وأثبت أنه يمكن للشاعر أن يتميز بعالمه الشعرى الخاص دون أن ينكفئ على ذاته . وينغلق على همومه الذاتية ، حتى تغمض معانيه ويبتعد عن شعبه ووطنه . ويخاطب نفسه . بل إنه يمزج بين ذاته ومجتمعه ، وبين همومه وهموم شعبه ، في مركّب شعرى جديد ثرى بالصور والرؤى والمفردات ، يمزج بين الماضي في التراث الأصيل وبين تجارب الواقع .ويستمد مبناه ومعناه من خبرات الشاعر وتجاربه الخصوصية . الواقعية والمتخيَّلة . ومن هنا يأتي الخلق الشعرى الجديد بتراكيب جديدة للكلمات والصور والمعانى ، يخرج بها عن المألوف والمكرر والمعتاد . . ولكنه يعنى أيضًا بالتوصيل . و يلتزم بالقضايا العامة و بتحريك الجماهير والتأثير فيهم وتغييرهم و دفعهم إلى صنع

مستقبل أفضل ، عن طريق الكشف الشعرى والتنبؤ والحدس والرؤى المستقبلية المتخيلة ، وبالبعد عن التقريرية والنثرية والمباشرة والخطابية والصراخ العالى . وهى هنات وقعت فيها بعض قصائد شعر أكتوبر من جراء الحماسة والانفعال والعجلة . لذا استبعدناها من نطاق هذه الدراسة . لأننا إذا كنا من أنصار الوضوح فى القصيدة فإننا ضد التبسيط والتكرار واستخدام الألفاظ والأفكار المعتادة والمألوفة . بل نحن مع الخلق الشعرى الجديد للكلمات والصور الغنية بالإيحاءات والإيماءات والدلالات المصفّاة من جوهر الواقع ومعطياته الآنية والمستقبلية . الواقعية والمتخيلة ، بشحن الكلمات بمعان جديدة وصور جديدة ورموز جديدة . وإعادة تركيبها فى صيغ وعبارات جديدة .

وهذا هو التأثير الذى أحدثته حرب أكتوبر فى بعض قصائد الشعراء العرب . ومن هنا جددت تلك الحرب العظيمة فى بنية القصيدة العربية وصورها ورموزها بجذبها إلى الصور التعبيرية . ومزجها بين الواقعى والمتخيل . وتجاوزها للتصوير الفوتوغرافى الآلى لوقائع المعارك الحربية إلى التعمق والاستبطان والتنبؤ . والخروج من إطار الرؤية المحدودة إلى الرؤيا الشاملة واستشراف آفاق أوسع من معطيات الواقع التفصيلية والجزئية . والخروج من حرب أكتوبر بالدلالات . والتبشير بمستقبل أفضل رسمت خطوطه دماء الشهداء ونضال المحاربين . فإن أبرزها فنيا هى تلك القصائد التى تجاوزت التصوير الفوتوغرافى الآلى لوقائع حرب أكتوبر وتعمّقت فى سبر غور وقائعها المعروفة وكشفها للحرب كشفًا شعريًّا جديدًا من خلال صور جديدة مركبة ، تجمع بين الرؤية الواقعية والنفاذ إلى جوهر الحرب والتخييل واستشراف مستقبل أفضل .

فانتقى الشاعر صلاح عبد الصبور من أحداث العبور إلى سيناء مشهدين هامين وصورّهما تصويرًا شعريًّا أخاذًا منحَها أعمق الدلالات . المشهدان هما لأول جندى

رفع العلم فى سيناء . وأول مقاتل قبّل تراب سيناءِ . وقد جعل منهما عنوانى قصيدته « رسالتان » . ووجّه صلاح عبد الصبور رسالتيه الشعريتين إلى هذين الجنديين اللذين تبلورت فيهما آمالنا جميعاً فى العبور ورفع العلم وتقبيل تراب الوطن وتحريره .

فى رسالته الأولى « إلى أول جندى رفع العلم فى سيناء » يصوّر الشاعر صلاح عبد الصبور ظهور ذلك الجندى العظيم على شاشة التليفزيون . تصويرًا واقعيًّا لعملية العبور ورفع العلم وما تجسّد فيهما من معانى الحب والمجد . فى الفقرة الأولى من رسالته الشعرية . وفى القسم الثانى من الرسالة تتصاعد الدلالات فى عملية العبور ورفع العلم وعودته « إلى وكره » تحقيقًا لآمال البسطاء الفنانين ؛ لأن العلم هو الباق . ثم يختتم الشاعر رسالته بتصوير ذلك العمل العظيم ورفع العلم بيد ذلك الجندى الجسور كتجميع وحشد الأرض مصر وتاريخها وأهلها وطبيعتها . فيقول الشاعر فى مزيج شاعرى مكثف يمتزج فيه الحلم بالواقع :

هيهات من التحديق . حالت صورة الأشياء فى العينين
وأضحى ظلك المرسوم منبهما
رأيتك جذع جميز على ترعه
رأيتك قطعة من صخرة الأهرام
رأيتك جانبًا من حائط القلعه
وقد وقفت على قدمين
لترفعْ فى المدى علما

وفى رسالته الثانية « إلى أول مقاتل قبل تراب سيناء » . يعمق الشاعر معنى تقبيل ذلك الجندى لتراب الوطن ، فيجوس فى روحه ووجدانه ومشاعره ليستخرج

الصور المعبرة عن ذلك العمل العفوى التلقائى الذى قام به الجندى المصرى تعبيرًا عن حبّه لوطنه وشوقه لاسترداد رمله وترابه . فى هذه القصيدة الجميلة يسأل الشاعر صلاح عبد الصبور هذا الجندى العظيم عن هذه القبلة الأولى من نوعها وعن طعمها . ومذاق أرض الوطن المحررة بالدماء . عندما امتزج الصدران . صدر الجندى الدامى وصدر الأرض المحررة . فى صور بالغة الثراء والتعبير :

ترى . ارتجفت شفاهك .
عندما أحسست طعم الرمل والحصباء
بطعم الدم مبلولا
وماذا استطعمت شفتاك عند القبلة الأولى
وماذا قلت للرمل الذى ثرثر فى خديك أوكفيك .
حين انهرت تسبيحًا وتقبيلا
وحين أراق فى عينيك شوقًا كان مغلولا
ومدّ لعشقك المشبوب ثوب الرمل محلولا .
وبعد أن ارتوت شفتاك
تراك كشفت صدركَ عاريًا بالجرح مطلولا .
دما ومسحته فى صدرها العريان
وكأنّ الدمع والضحكات مجنونين فى سماك
وكنتَ تبثّ . ثم تعيد لفظَ الحب مذهولا

ولأحمد عبد المعطى حجازى قصيدتان « ثلاث أغنيات للوطن » و « أغنية لدمشق » . فى الأغنية الأولى من قصيدته « ثلاث أغنيات للوطن » وعنوانها « تهليلة » يصور حجازى مفاجأة المعركة التى تفجرت بعد انتظار جريح . وكيف

رزح الوطن تحت وطأة هزيمة يونيو حتى فاجأت الحرب الجميع ثم يختتم الأغنية بكلمات مباشرة متهما الشعراء والأدباء بأنهم لم يعرفوا وطنهم حق المعرفة ولم يعملوا لساعة الهجوم والغزو . فقد أثبت الوطن بتحركه العظيم أنه أكبر منّا جميعًا ومن توقعاتنا كلها :

إنه وطن
شجر ، ودم . ونجوم
وروح يفكر فى ذاته
وطن ظل فى صمته
فى جلال تواضعه
ظل منتظرا فى غيوم كآبته
حاملا جرحه المتفتح
عامًا ، وعامًا ، وعامًا
ونحن نحدث عنه
ونهرب من وجهه المتسامح
حتى أتت الساعة
فرأيناه ، قام بمفرده
عابرًا برزخ الموت
ينفض عن كتفيه الصواعق
مبتسمًا للمصير الذى يتراءى له
ويكلمه بلسان عجيب
ونحن نتابعه ذاهلين

لقد قام !
كيف تقوم الحقول بمفردها
وتقوم القرى وحدها
ويقوم اليتامى المذلون !
قولوا إذن تلك معجزة
لا ! ولكنه وطن . .

فى الأغنية الثانية يطوّر الشاعر قصيدته برؤيته لنار الحرب وحديدها الملتهب المتطاير كمطهّر لجسم الوطن من الترف والنعومة والتخلف وكطريق لتحضر الوطن وعصريته وينتقل حجازى خطوةً من فرحة المفاحأة وانفعال التحرك الجبار بالحرب إلى تنظير الحرب ؛ فالنيران والحديد هما علامة العصر والنصر . بالقوة وبالحضارة تستيقظ الشعوب من سباتها وسلامتها . إنه ينادى الوطن : احتضن الحديد والنار دعه يحرك تخلفك ، فطريق الحرية طريق العصر . طريق القوةوالحديد والنار :

إنه العصر
هذا الحديد وهذا الشرر
فاحتضنه
ودع جسمه يخترق جسمك الحى
ياوطنى المتخلف
كى تتحضر .

ثالث أغنيات حجازى للوطن أغنية بهيجة فرحة بالعلم الذى رفعه أبطالنا من جديد فوق أرضنا المحررة بدمائهم واقتحامهم للنار والحديد لقد رأى حجازى فى

هذا العلم علمنا الوحيد لأنه مخضب بدماء رجالنا فقد منحوه أرواحهم النبيلة كي يرتفع . أما سائر الأعلام الأخرى فليست سوى قطع من القماش . إن الشاعر لاينسى أيضاً روعة الصورة الشعرية فكل الرايات من قماش أما علمنا الجديد فنسيجه من دم . كلّ خطوة لرجالنا العظام تنسج سطرا من نسيج العلم . ولون العلم يتكون قطرة قطرة من دم شهدائنا . ويصور الشاعر فى أغنيته البديعة كيف يتصفى الرجال و يقطر دمهم و يقلون ليكبر العلم و يزداد . فى هذه الأغنية تتجسد عظمة الشعر وجماله وروعه تعبيره بالصورة الشعرية :

كلّ راياتنا قطع من قماش
وأنت العلم
مصر أنجبت الناس زوجين زوجين
والحب أنجب أبناءهم
واصطفى المجد أجملهم
واهبًا لك أرواحهم ياعلم
كلما نقلوا إليك فى الطريق قدم
نسجوا فيك خيطا
ومن كل قطرة دم
رسموا فيك لونا
فهُمْ أنت
ما برحوا ينقصون وتزداد
ينحدرون وتعلو
لقد قسموا فيك انفسهم

جسدًا ضاربًا جذره فى الرمال
وروحًا مزخرفا من القمم
قل لنا ياعلَم
افتدونى
نحبك نعم !
ونحبك نعم !
ونجبك نعم !

فى أغنية أحمد عبد المعطى حجازى لدمشق . نتابع الصور الشعرية المعبرة عن حب الشاعر لدمشق مدينة التاريخ العربى المجيد . وفى أغنيته لدمشق لاينسيه انفعال المعركة دقة الصورة وجمالها وبعدها عن كل ما هو خطابى . أو تقريرى أو مباشر . كذلك الفن الأصيل ضد المباشرة . بل هو تعبير بالصور وتفكير بالصور . كيف رأى الشاعر دمشق . عروسًا جميلة تدفع التتر عن خبائها وتقطر دمًا ملتهبًا يحرق الأعداء . فجمال دمشق فى بطولتها وإقدامها . فدمشق تكشف عن جمالها البطولى فى ساعة الخطر.

رقيقة أنت أمام كلّ هذا الموت
يادمشق
مثل زهرة فى الثلج
لكن ما الذى يفعله الموت العكر
لقطرة من الدم البرى .
صارت جمرة مشبوبة فى الرمل ؟
ماذا يفعل الموت

لهذا الفرح للمولود كلّ لحظة
من قلب أحجارك
من ضلوع أنهارك
ماذا يفعل الموت
الأطفال يردون عليه بالأغانى
ويزيدون التصاقًا بالتى تكشف عن جمالها الرائع
ساعة الخطر .

وللشاعر فاروق شوشة « أغنيتان لمصر » . الأغنية الأولى أنشودة حب لمصر . أما الأغنية الثانية فتحمل رؤية فاروق شوشة الشعرية للمعركة عنوانها « اليوم السابع » وهو عنوان غنى بالدلالات . فالمعركة لم تنته بالستة أيام المكونة لنكسة يونيو الطارئة . المعركة مستمرة وهذا هو يومها السابع يأتى بالنصر . ويشفى الثأر . وحيث يأتى اليوم السابع يبين وجه الوطن الغائب خلف غلالات الأيام الستة السوداء وتعود الروح لمصر .

اليوم السابع جاء
سقطت أحلام المخمورين المزهوّين
قذفت ببقايا الوهم الجاثم فى سيناء
- الوهم ابتلعته الصحراء-
أنبتت الأرض الطيبة المخضوبة
وردًا يسقيه دم الأبطال
وحنين التواقين ليوم الثأر
جاءوا كالسيل الجارف . كالزلزال .

يحملهم مدّ الشوق العاصف
يدنيهم من وهج الأرض المسلوبة
وترفرف أرواح الشجعان على سيناء
يرتاح للشوق اللاهب
تحتضن الأيدى وجه المحبوب العائد
وجه الوطن الغائب خلف غيامات الأيام السوداء
وجه اللحظة . حين يصب الماضى فى الحاضر
يتصل نداء الإنسان وسعى الإنسان
اليوم يعود إلى الأشياء مذاق الأشياء
يصبح للكلمات مذاق الكلمات البكر
وتعود الروح إلى مصر

فى قصيدتيه . «أشواق كل ساعة» و«لغة الأيام المنتصرة» يبدع الشاعر محمد مهران السيد رؤيته لحرب أكتوبر ، فيرتفع من الواقع الجديد ، الذى خلقته معارك الحرب ، ليحلّق فى سماء الحدس والفكر والتنبؤ والكشف الشعرى الجديد ، انطلاقا من معطيات حرب أكتوبر ، فيصوغها فى صياغة جديدة تمزج بين الواقعى والمتخيّل ، وتعبّر عن الهموم والآمال المختزنة فى الضمير الجمعى لشعبنا وأمتنا .

فكثّف الشاعر مهران السيد فى قصيدته الأولى . « أشواق كل ساعة » ، رؤيته لمصر الجديدة . مصر أكتوبر ، وجمع فى صوره الواقعية والمتخيلة أفراحه وأشواقه وتنبؤاته للمستقبل الجديد الذى تبدعه معارك الرجال وسيوف الشجعان التى تمضى مصر العروس فى حمايتها ، مصوّرا حرب أكتوبر كتحقيق لآمالنا وأشواقنا ، متمنيا دوامها حتى تتحقق كل الأشواق والطموحات . لذا تستحق تلك الحرب العظيمة

أن تحتشد لها كلّ قصائد الشعر ؛ لأنها هى القادرة ، لو استمرت على تحقيق كل طموحات الشاعر الوطنية والشعبية . وفى هذه القصيدة تتكرر كثيرًا كلمة « لو » تكرارًا مقصودًا وموحيا ومعبّرا عن آمال الشاعر وعن تمنياته وعن مخاوفه أيضًا ، فبقدر فرحه بقيام الحرب يأتى قلقه على استمراريتها ، لأنه يرى فى الحرب الطريق الصحيح لتحقيق كل الأحلام والأشواق ، فيستهل قصيدته قائلاً :

لو نمضى فى هذا الدرب
لو نمضى فيه . . صباح مساء
تحملنا الأشواق إلى ما بعد القطب
ونسير . . نسير
نتجاوزه بكثير

ويقول أيضاً :

لو نقدر أن نستقطب ماقال الإنسان من الشعر
فى بيت واحد
قزحى الألوان
لنظمناه لمصر . .
وهى تمرّ عروسًا تحت سيوف الشجعان
فى درب الأيام المشمسة الصاعد

وفى قصيدته الثانية ، « لغة الأيام المنتصرة » ، يصور محمد مهران السيد رؤيته المتفائلة لمصر أكتوبر ، مصر المنتصرة ، حيث تعلو لغة الأيام المنتصرة لتؤكد صدق نبوءة الشاعر بالثقة فى قدرات مصر العربية وشعبنا وأمتنا ، برغم كلّ مرارات الهزيمة

وإحباطات القهر . فتتدفق الصور الواقعية المعبرة عن قهر الزنزانات الرطبة ، وعن محاولات « التسلق بالأظفار جدار اليأس » ، وعن التمسك « بحبل الأشواق » والأمل فى مستقبل أفضل يتم فيه اجتياز واقع الهزيمة والقهر واليأس . حتى جاءت حرب أكتوبر لتعد الثقة فى إمكانياتنا لتجاوز كلّ عوامل الهزيمة والإحباط وتتألق محبوبته مصر من جديد ، بعد أن تخلّصت من الخوف واليأس والهزيمة .

حين رأيت فتاتى آخر مرة
كانت تتألق أكثر من لمعان السيف
تمضى واثقة تحت عطاء الأيام المتخلّصة من الخوف
تضحك حينا . .
أو تتحدث فى لغة منتصرة

هكذا تتصاعد الرؤية الدرامية لحرب أكتوبر فى قصيدة الشاعر محمد مهران السيد ، « لغة الأيام المنتصرة » ، من تصوير أيام الهزيمة وليالى القهر والصمت . إلى ذروة الحدث العظيم الذى حققته حرب أكتوبر لتفجّر أغنيات النصر وكلمات النصر . .

فى قصيدة « تراتيل السفر الثالث بعد الألف » لدرويش الأسيوطى . يغترف الشاعر من التراث التاريخى لمصر القديمة . ويستعير لغة المصريين القدامى وتراتيلهم ، وينتقى من شخصيات القادة المقاتلين « أحمس » المحارب المنتصر . ويمزج هذا كلّه بيوم العبور ودرس العبور . فالتاريخ مستمر وممتد . وتأتى حرب أكتوبر فى القصيدة عبر تنويعات من أربعة مقاطع أو أربعة أسفار . فى السفر الأول يصوّر الشاعر تخلق الإنسان الجديد الذى « يعرف كيف يكون الحب » مثلما « يعرف

كيف تدور الحرب . ويستمد القوة والخبرة والشجاعة من تراث الأجداد ومن « حراب الآباء المنتصرة »

كي يقتل ابنى فى سيناء المنتظرة
شبح الوهم الجاثم فوق صدور الخلق . .

فى « السفر الأول بعد الألف » يرتل الشاعر بلسان حورس لمصر الأم . ويغنى أناشيد الحب العالية المباشرة :

وأرتل خلف الكمان . . « تبارك اسمك يامصر » .
تبارك اسمك يامصر . .

فى « السفر الثانى بعد الألف » يغنى الشاعر بلسان حورس اليوم السادس من أكتوبر ، وهنا تقفز الصور المعبرة عن عمق التراث النضالى للإنسان فى مصر . فيفوح عطر السادس من أكتوبر من تراث العزة ويزهر الأمل فى جبال اليأس وينبث البطل الجديد من طين الأرض . هذه الصور المتابعة المعبرة عن البعث الجديد واليقظة الجديدة التى مثلتها حرب أكتوبر تتدفق فى قصيدة الشاعر درويش الأسيوطى لتقدم أفضل تنويعاتها :

يقول الرب :
فى تربك أنبت أعواد العزة . .
حيث البدء المتجدد حورس
يزهر فى جبل اليأس القانت بالنصر رسولا .
. . يوقد قنديلاً فى معبد رب النصر

كى أنبت من طين الأرض إله . .
غنى أحمس :
ياصبر الأم الدامعة العين .
ياطيب المعبد . .
ياعطر السادس من أكتوبر . .
يازيت المصباح الساهر فى ليل العشق . .
تبارك إسمك يامصر . .

ويأتى التنويع الأخير على لحن العبور . فى « السفر الثالث بعد الألف » . ليقدم نبوءة بمستقبل أفضل . يخرج من سطور التاريخ ويمتد ليمجّد الأبطال الزاحفين نحو الشرق فى رحلة العبور الجسور ليصنع مصر الجديدة . مصر أكتوبر .

ومن ميدان القتال يكتب الشاعر عصام الغازى قصيدته « قراءة فى كتاب المجد » مستلهمـا « درس العبور » . مستمدا منه قِيَم الجدّية والبطولة والقوة فى مطابقة تقابل صور النعومة والترف الاستهلاكى . فتقدم حرب أكتوبر كتاب المجد الجديد الذى يمحو بالدم الضعف والاستكانة ، وتعلم الحب الحقيقى من جبين المقاتل الجريح ودمه الزكى الطاهر المعطر . وتبدع صور المجد بالرصاص والدم على الرمال المحررة . حيث تورق الأزهار وتتفتح فى الصحراء المرويّة من « انصهار اللحم والحديد والبيارق المهترئة » . . هكذا فى صور متتابعة يقدم الشاعر عصام الغازى رؤيته لجوهر العبور فيكشف عن حيويته المغيّرة لوجه الحياة الخانعة السابقة قبل يوم العبور . يوم المجد :

أراك عبر الليل . والأسلاك . والأعداء
تشقّين زحام الشارع الكبير

تقفين على واجهة المتاجر المضيئة
تحلمين بالمعطف والباروكة الشقراء
عودى إلى بيتك الآن
وافتحى كتاب المجد
اقرئى - فى الصفحة الأولى - درس العبور

نطالع فى هذه الأبيات الخطابية والمباشرة والكلمات النثرية المألوفة والمكررة. ولكن فى المقاطع الأخرى من القصيدة يبدع الشاعر فى أسلوب الصور ويقدم مفرداته فى تراكيب جديدة. تجمع بين الوضوح والبساطة وجمال الفكرة وخاصة فى الأجزاء الأخيرة من القصيدة، حيث يمتزج الخيال بالنبوءة ويقدم رؤيا الشاعر الغنية بالإيحاءات والدلالات لحرب أكتوبر وحدث العبور، حيث كلّ شىء يتحول ويتغير ويتخلّق فى عالم جديد جميل ينهض على أنقاض النعومة والضعف والقبح.

أرسم وجهك الجميل فوق الرملة المحررة
انظرى تفتح الأزهار فى الصحراء
انظرى يدك التى تمتد بالأقمار
من بوابة المفاجأة
وانصهار اللحم والحديد والبيارق المهترئة..
افتحى بوابة الشمس
وصبّى فى عروق الغيم ألحان الرياح
انزعى عن ظهرك الوردى آثار الجراح

«الوقوف بامتداد الجسد على قصيدة الساعة الثانية». قصيدة طويلة للشاعر حسن النجار. تقع فى عشرين صفحة وتتكون من خمسة مقاطع: كتب الشاعر ثلاثة منها إبان اشتراكه فى معارك حرب أكتوبر وكتب المقطعين الأخيرين بعد وقف إطلاق النار. كما ذكر حسن النجار فى كتيب صغير له عن «شعر المعركة». وقد منحت هذه القصيدة عنوانها للديوان كله. وفيها يصور الشاعر العبور فى الساعة الثانية ظهرا فى صور تعبيرية جميلة تأخذ ملامحها من عبور رجالنا مياه قناة السويس واقتحامهم الموانع المائية والترابية والحديد والنار. وتستمد عناوينها من بيانات المتحدث العسكرى ووقائع العبور العظيم. ولكنها تمزج ذلك كله بوجدان الشاعر ورؤيته الذاتية وآماله وأشواقه وطموحاته النابعة من انصهاره فى أتون الحرب. لتخلق حرب أكتوبر خلقًا شعريًّا جديدًا. يركّب الكلمات تركيبًا جديدًا ويشحنها بمعان جديدة ثرية بالإيماءات والإيحاءات والدلالات. فيرتفع الشاعر من إطار الرؤية التسجيلية المحدودة. والوقوع فى نثر الواقع وسرده الذى لا يقدّم جديدًا للشعر. إلى الإبداع الشعرى وصياغة واقع الحرب صياغةً خلاّقة تكشف عن جوهر حرب أكتوبر كما سبر غورها الشاعر المحارب حسن النجار. وامتزجت بروحه وضميره وتجلّت فى مقاطع قصيدته الطويلة الخمسة. وتستحق هذه القصيدة الجميلة وحدها دراسة نقدية منفردة. لثرائها وجمال صورها المعبرة عن حرب أكتوبر دون مباشرة أو خطابية أو انفعالات حماسية. فالشاعر ينسج كلماته من انطباعات المعارك فى ضميره ووجدانه. ولا ينقل تلك المعارك التى خبرها جيّدًا. نقلاً فوتوغرافيا آليًّا. ومن هذا النسيج الجديد تخلّقت حرب أكتوبر فى مركّب شعرى جديد يجمع بين الذات والموضوع. بين الخاص والعام؛ لذا تمتعت القصيدة بشاعرية دفاقة وابتعدت عن النثرية والصوت العالى الجهير فالعبور فى الساعة الثانية قصيدة قوية أبدعها الجنود لحظة العبور. أتت على ترقّب الشاعر

للأشعار والأوزان والقوافى . وأنهت أوقات الانتظار :

كانت تمام الثانية
النسر مسح ريشه فى الماء .
حطّ على غلال الأرض : فرطها ،
وجر وراءه ثور انتصاب الريح ثم
تقصد الرؤيا وباض على قصيدة

فإذا انتقل الشاعر إلى وقائع الحرب فإنه ينتقى منها العناوين فحسب ويعيد تركيبها تركيبا شعريا جديدا موحيا . منميا ومطورا صورة العبور كقصيدة تتخلق وتتشكل قوافيها وأوزانها وصورها من الحمم التى تفجرت بها الأرض ومن اللحم الراقص على النار المنتشى بفرح الحرب . فصارت الأبدان البشرية للمحاربين كالأسنة تطعن العدو وتكتب بالدم وفى اللحم قصيدة العبور . هكذا صور العبور تصويرًا تعبيريًّا جميلاً موحيًا فى أحد مقاطع القصيدة وعنوانه « مالم يرد ذكره فى بيان المتحدث العسكرى رقم (١) » .

ألقت الأرض شعرتها فى يد الكون
صارت نفير الغرائز – قافية الحمحمة
فاستبان لنا فرح اللحم فى رقصها
العائلى على طبل أوزاننا – النار .
ياجمرة الله صارت لنا حبرنا فاستعرنا
أسنة أبداننا ،
وعرفنا الكتابة فى اللحم .
كانت صحائفنا دورة الملحمة

ويمضى الشاعر فى تصعيد صور العبور عبر مقاطع قصيدته . فيخاطب مصر الوطن (الأم) . ويرى سرّها وروحها ولحمها ودمها معتصرًا ومقطرًا فى الجنود العابرين الذين يشكلون قصيدة العبور . قصيدة الساعة الثانية . هؤلاء الجنود القادمون من زوايا النار ليخوضوا فى الماء مسلحين بالرؤيا والفجر الجديد .

أقبل الجند من الزاوية النار
إلى كل الزوايا .
خوضت أقدامهم فى الماء حين
استحلبوا الرؤيا فألقوا ماسة
النهر على صدر السهول

وتتنوع صور العبور بكلمات متجددة مشحونة بتجارب الشاعر وخبراته بأرض الوطن . وتراثنا العربى . مع الصور التعبيرية الواردة تحت عناوين القصيدة الحربية . والمنشورات القتالية المرقمة والمتتالية . . فتتصاعد صور النهر المحارب ويصّب « الغرين المفضى إلى قمح البكارة » . هكذا ينتقى الشاعر كلماته من صميم خبراته الوطنية بالنهر الأصيل الفعّال فى الحياة المصرية والإنسان المصرى . فيبدو العبور تجديدًا لأرض الوطن وإضافة جديدة لترابها بطرح المزيد من القمح البكر . ويزيد من خصوبة تراب الوطن . وينسج الشاعر لوحة رائعة من خبراته وتجاربه فى أرض الوطن ويمزجها بوقائع العبور ومعاركه المصورة تصويرًا تعبيريًّا جميلا . فتمتزج ملامح الجنود أبناء الأرض بالماء والغرين حتى صارت كتائبهم « شجر شجرًا » وتجسدت فيهم ملامح أرض مصر وعبرت من خلالهم وتدفقت عبر دمائهم التى حلّقت بها العصافير وهى صور من أبدع صور حرب أكتوبر الشعرية وأكثرها ثراء وإيحاءً . جاءت فى مقطع عنوانه « منشور قتالى رقم » (٣) :

ربط الجندى أفراسهم واستراحوا على
تلة – ها هنا الماء –
حلّوا ضفائرهم شعرة شعرة وأمالوا
الرءوس على عشبة الرى .
– يستحلبونك غرغرة فى الحلوق ؟ -
هنا الأرض قد شمرت عن بنيها
تنخبت الماء فى مربض الخيل .
« هل كنت قائمة بينهم
أم يد الله حلت
أم الماء قد خاطب الرمل
باللغة الغرينية حتى استحالت
كتائبهم شجرًا شجرا
ها هى الأرض قد هاجرت فى ثيابهم
هاجرت فى الدماء التى حملوا
فى الرياح التى بسطت ريشها
فى العصافير حين ترسمت الماء
فى قُلة الهاجرة

للشاعر السورى سليمان العيسى ست قصائد فى حرب أكتوبر . نختار منها فصيدته الجميلة « ياياسمين دمشق » . فدمشق الجميلة بياسمينها الأبيض المعطر يتحول ياسمينها إلى عطر أحمر فى مواجهة الأفعى الأعداء.

فى قصيدة من الشعر العمودى التقليدى يعيد سليمان العيسى لهذا الشعر جماله

وأصالته مخلّصًا إياه من التقعر والتكرار والصور اللفظية والخطابية الصارخة . وهذه قصيدته « ياياسمين دمشق ! » تمتلئ بالصور الشعرية الجميلة المعبرة . وقد رأى الشاعر فى وقفة دمشق غطّاها الوطن العربى بعباءته ونسره الأسمر .

تَسقى من الأزلِ السحيق وتُسكِر ماذا أقول . وأىّ خمرك أعصر ؟
ياياسمين دمشق مدّ بيارق مطراً بملحمة الرسالة يهدر
ياياسمين دمشق . عطرك أبيض وتغطرست أفعى فعطرك أحمر
وغضبت .. فالوطن الكبير عباءة حطت على بردى . . ونسر أسمر
هشمتها أسطورة . . وذروتها كلّ الغزاة على العبير تكسّروا
كل الغزاة . . وظلّ قنديل الهوى أبدًا على العطر المدلل يسهر
كل الغزاة . . ولم تجف منارة ياياسمين . . ولا تزحزح منبر

العبور فى قصيدة الشاعر العراقى شفيق الكمالى : تحمل عنوانه « العبور » أيضًا يعنى عودة عمرو بن العاص إلى مصر ، عودة الفارس إلى مصر ، عودة الفرح بعد أن نسيناه طويلاً ، ويتساءل الشاعر هل نجرؤ على الفرح ؟ ولكنه يتفاءل فى النهاية بأنها فرحة خير ! !

عمرو بن العاص . . ترف عباءته فوق النيل
عاد الغائب للأهل
عدْنا
عادت أيامك ياذى قار
وهدير
أطرب سمع الليل

عدنا . . .
صرخات الجند
زئير دروع صدئت زمنا . .
يا سيناء انتفضى . . .
ياسيناء . التيه . .
الرمل الحارق . .
أشلاء رفاق الأمس . . .
اخضرت
أعشب صدر الأرض دروعا
تطحن غول العار
عدْنا . .
عاد الفارس للساحات . . .

وللشاعر العراقى معد الجبورى قصيدته الجميلة الصادقة « للصورة لون آخر » ، وهى قصيدة درامية وفيها الكثير من الحكاية القصصية ، وهو يعرض كيف غيرت حرب أكتوبر « تشرين » كلّ شيء وأزالت ألوان يونيو (حزيران) ، فالصورة بعيدة ومختلفة تماما بين يونيو (حزيران) وأكتوبر (تشرين) ، إذا لم تعد فوهات مدافعنا أعشاشا للطير من طول سكوتها وعدم استعمالها . كذلك مواقعنا لم تعُد حائطاً آخر للمبكى نبكي عليه مأساة يونيو السوداء ، بل كل شيء يتغير ويتحول إلى لون جديد ، فالدم يورق فى الصحراء والماء يتدفق بين أيدى الجنود فى سيناء والجولان .

قلتم :
«كان الدم محتقنا فى الأعراق ،

الدم فى رحم الجرح المقفل محتقن ،
لكنى أنبئكم
أنى فى تشرين رأيت الدم يورق
بين رمال الصحراء
قلتم :
«كان العطش المتداخل فى العظم ،
يسد طريق الرؤيا ،
لكنى أنبئكم
أنى فى تشرين رأيت الماء .
يتدفق بين أكف الجند الممتدّين
من الجولان إلى سيناء
تشرين :
آخر ما يسقط من تقويم الأحزان

قيل عن حرب الأيام الستة أن العرب حاربوا بالراديو والإذاعات ولم يحاربوا بالفعل ، وتلك قضيّة ظلت عالقة بأرواحنا حتى محتها معارك أكتوبر المجيدة . والشاعر معين بسيسو انتبه للجنود العرب يحاربون من دمشق يهبون أجسادهم وأصابعهم لتحرير الأرض غير آبهين بالكاميرات والميكروفونات فهم خارج الصوت والضوء يموتون فى صمت وجلال ، فى قصيدته « جنديا . كان الله وراء متاريس دمشق » .

كان يموت بصمت
ما كان بيده كاميرا ، وعلى فمه

ما كان مكبر صوت
كان يموت وراء خطوط الضوء
وراء خطوط الصوت . .
قلبي قنبلة لدمشق . . .
وأصابع كفي العشرة . . .
عشر رصاصات لدمشق . .
كان يموت لوراء خطوط الضوء
وراء خطوط الصوت
كان يموت بصمت
ما كان يموت بصمت
ما كان بيده كاميرا . وعلى فمه
ما كان مكبر صوت

وعن دمشق يتحدث الشاعر التونسي محمد الهادي بوفرة في قصيدته مذكرات شهيد « المقسمة إلى جزأين . الأول عن انطباعات الخامس من يونيو (حزيران) الكئيبة . والثاني عن دمشق السادس من أكتوبر « تشرين » المجيد . يستمد الشاعر شجاعته من قوة مواجهة المقاتلين للموت . فحتى عندما يتصور جسمه مفتتا متناثرة أشلاؤه تتحوّل هذه الأشلاء إلى شظايا تصيب الأعداء . وقد رأى الشاعر في المعركة فتحاً لأبواب الحرية .

اليوم يولد المقاتل الشجاع والمقاتلة
فأين . أين القابلة
لتفتح الجراح .

فتتنى شظية .. شظية
انفجر اللغم ...
فمن كل خلية
أمدّ ألف ساعد .. وألف بندقية ..
لا تغلقوا الأبواب
اليوم يأتى الموت كالأحباب
يحمل للأطفال فى المدينة المأسورة
يحمل فى الحقيبة الحرية
واللعب المكسورة
وبدلة عسكرية
فى جيبها للتراب .. والأعشاب
لا تغلقوا الأبواب ..
لا تغلقوا الأبواب ..

أما الشاعر التونسى « فاضل خاف » فيكتب قصيدتين تنبضان بالحب الصادق لمصر ودمشق ، « اسلمى يامصر » ، وأنت يادمشق » فيرى الشاعر فى مصر أمل العربية الباقى على مرّ العصور ، بل تفنى العصور وتبقى مصر على الدوام فى أعماق الضمير .

سيرى بعون الله سيرى سعيا إلى النصر الكبير
سيرى ولا تـــتوقفى فالعزّ فى هذا المسير
يامصر يا أمل العروبة يـــارُبـــا المجد النضير
يـــامصر حــقـقت المنى فأتاك مبلتهبا شعورى

للشاعر السودانى المعروف محمد الفيتورى قصيدتان :

« إيقاعات قبل مارش النصر» و « البطل يعبر إلى المعشوقة » . والمعشوقة هى الوطن ، هى الأرض المحتلة ، هى مصر ، هى سوريا ، هى ضفة الأردن الغربية .

يتحدث الشاعر عن أيام النكسة الطويلة الطويلة ، ولكنه يتفاؤل الثورى رأى أمل اليقظة فى أجفان الصمت والسكون . فكان يثق فى المستقبل . فى اليقظة ، فى القنابل لم ييأس أبدا .

زمن مرّ ثقيلاً . . يابلادى ...
كنت أعرف
أنه عصر الخيانات التى تنبت
تحت الجلد والعظم . . .
وأعرف أنه عصر النبوات الشهيدة
يولد الثائر فى مستنقع القهر . . .
كما تولد فى الغيم الأعاصير . .
كما تولد فى مستنقع الموت . .
المخاضات الجديدة
ألبس زينتك الآن . . فقد جئت .
وها إنى أقاتل
وأغنى . . وأقاتل
وأغنى . وأقاتل

وللشاعر المصرى فتحى سعيد ديوانه « مصر لم تنم » ، الذى صدر فى شهر ديسمبر عام ١٩٧٣ أى فى أعقاب حرب أكتوبر . تصدرت الديوان قصيدة كتبها

الشاعر فى ثانى أيام المعركة « عشية السابع من أكتوبر ، رفع العلم المصرى فوق « سيناء » والقصيدة كتبت بوحى العلَم المصرى المرفوع على أرض سيناء وعنوانها « أقبل العلم » ، وهى قصيدة طويلة ثرية بالصور الشعرية الجميلة ، والشاعر يصور عملية رفع العلم كعرس الدم ، فالأنامل خضراء والدم يورق فى الصحراء ، والفرسان فى سيناء يحيطون بالعريش ، والدم الزكى يغسل الصدأ ،وتولد الأفراح من جديد ..

أقبَل العلَم
والكف رفرفت به على الربى الجرداء
أقبَل الأناملَ الخضراء
تلك التى على مدارج الصحراء
تسابقت
وأوْرقت
وأورقت دماً وأورقت حنّاء
تخضّب الكفّين كالعرس ليلة الزفاف
زُفّت ليوم الثأر مهرها الدماء
فى هودج حفّت به الفرسان فى سيناء
وانحنى على الضفاف
أستف ترابها وأطفئ الظمأ
أعبُّ جرعةً وأغسل الصدأ
وألثم العلَم
مرفرفا من فوق قبضتك

وهناك الكثير من قصائد المعركة انطلقت بسرعة المعركة . فقد أثبت الشعر أنه قائد الفنون الأدبية وقت احتدام المعركة ؛ لأنه الفن الأدبي الذى يكتب دون تخطيط مسبق

وإن حصاد الشعر وفير كما هو الحال فى القصة القصيرة . فقصائد أكتوبر العربية غمرت الصفحات الأدبية والثقافية . وتدفقت عبر موجات الإذاعة المسموعة والمرئية . وفى الأمسيات الشعرية . وننتقى هنا ثلاثة دواوين جمعت بين شعراء من أجيال مختلفة . الديوان الأول للشاعر نصار عبد الله عنوانه : « الجرح الذى أصبح سيفا » . وضمّ الديوان الثانى . وعنوانه « شعر العبور إلى المستقبل من وحى ٦ أكتوبر » . ستّ عشرة قصيدة لستة عشر شاعرا . هى القصائد الفائزة فى مسابقة وزارة الثقافة الأولى بمناسبة مرور عام على حرب أكتوبر الشعراء هم : إدوار حنا سعد . على محمد الزامل . حسن فتح الباب . محمد أحمد العزب . على السيد الباز . محمد على أحمد . أحمد أحمد العجمى . سيد أحمد رضوان . عباس بيومى عجلان . عبد الحميد محمود عبد الحميد . عبد الغنى درويش . عبد الكريم الطهطاوى . د عزت شنادى موسى . محمد فريد عبد الخالق . محمود العتريس . ونجاة شاور عوض الله . وجمع الديوان الثالث « أغنية لسيناء » مجموعة قصائد لأربعة شعراء هم فوزى خضر . عصام الغازى . درويش الأسيوطى . وصلاح اللقانى . وتتطلب الكتابة عن كل هذه القصائد كتابًا بأكمله ، لذا نكتفى بانتقاء بعض القصائد الممثلة لاتجاهات الشعر العربى الحديث فى تناوله لحرب أكتوبر . وذلك استمرارا لمنهجنا فى هذه الدراسة بانتقاء بعض القصائد المعبّرة عن حرب أكتوبر تعبيرًا جديدًا . من الدواوين الصادرة من وحى تلك الحرب العظيمة . نظرًا لأن المجال لا يتسع لتناول كل القصائد التى غمرت صفحاتنا الأدبية وغزت مكتبتنا العربية . وقد حاولت أن

يجمع هذا الانتقاء المحدود لبعض قصائد شعر أكتوبر العربى بين اتجاهات ذلك الشعر . وأن يضم قصائد الشعراء المقاتلين فى حرب أكتوبر مع قصائد الشعراء المكتوبة من وحى أكتوبر وفى زخمه . وقد فرض الانتقاء استبعاد الكثير من القصائد التقليدية والحماسية والخطابية التى لا تضيف جديدًا إلى الشعر العربى ولا تتصل بشعر أكتوبر إلا من خلال كلمات الحرب والعبور النثرية المباشرة وتعتمد هذه الدراسة إلى التحليل لا التقويم أو التقييم .

فى الديوان الأول « الجرح الذى أصبح سيفًا » للشاعر المقاتل نصار عبد الله . الذى شارك فى حرب الاستنزاف وفى حرب أكتوبر معًا . قسم الشاعر ديوانه إلى ثلاثة أقسام . تمثل ثلاثة وجوه زمنية ونوعية . فضم القسم الأول « قصائد ترفض الهزيمة » قصائد الشاعر فى أعقاب نكسة يونيو ١٩٦٧ . واحتوى القسم الثانى « قصائد فى أرض اللاحرب » . القصائد التى كتبها الشاعر خلال اشتراكه فى حرب الاستنزاف . أما القسم الثالث والأخير فعنوانه :

« أناشيد العبور » ويضم قصائد الشاعر عن حرب أكتوبر . لذا سنركز على هذا القسم الثالث والأخير من ديوان نصار عبد الله .

ويقدم الشاعر فى « أناشيد العبور » عدة قصائد وأناشيد تمثل تنويعات على الحدث العظيم المتمثل فى حرب أكتوبر . والعبور . والقتال فى سيناء والجولان وتجمع القصائد بين فنية الشعر وحداثته وبين خبرة المقاتل ووعى المناضل السياسى وعروبة الشاعر القومى . ففى النشيد الافتتاحى من أناشيد العبور « أغنية إلى ٦ أكتوبر » . ينطلق الشاعر من جرح الهزيمة فى يونيو ليصنع منه سيفا فى أكتوبر « تشرين » ويصوّر الشاعر جرح يونيو كمفتاح لباب أكتوبر . ويتدفق جرح الهزيمة ليصبح سيفًا وقلاعا وزلازل .

أيها الجرح الذى أصبح سيفًا

والذى هبّ يقاتل

، أيها الخامس من شهر حزيران الطعين
أيها الراقد فى أعماقنا ست سنين
أيها الممتد حزنًا واغترابا
وعذابات وخوفا
تفتح الآن إلى تشرين بابا
فترى جرحك سيفًا
وقلاعًا وزلازل

أما العبور فإن الشاعر يبدع فى تصويره فى عدة مقاطع من أناشيده وأغنياته ، فيصوّر الشاعر جباه الجنود وهى تعبُر مياه القناة بالجبال الشامخة ، ويمزج جبروت الطبيعة الجبلية بكبرياء الرجال وقلوبهم تعبُر بالحياة من الظلام إلى النور ، ومن الحزن إلى المجد :

شامخة جباهنا كأنها جبال
شامخة جبالنا كأنها جباه
كأنها جباه جند مصر وهى تعبر القناة
كأنها صدورهم
كأنها قلوبهم
كأنها الحياة
نعبر من حدود افريقيا
نعبر من ظلام جرحها العميق
إلى عيون آسيا الحزينة
فنفتح الطريق

للمجد والسلام والسكينة

وفى تنويع آخر على لحن العبور « أغنية إلى قارب مطاطى » يخاطب الشاعر قاربه المطاطى الذى عبَر به مياه القناة إلى أرض سيناء . مصورًا القارب وقد تجسدت فيه إرادة الجندى المقاتل وتحققت أمنياته فى العبور من الوطن الضيق والقلب الجريح إلى حيث يستريح :

على هواى . . لا هوى أكف الريح
تطير بى ياقاربى
تنقلنى من وطنى الضيق والفسيح
تطربنى . . فقلبى الجريح
يعشق أن يعانق الموت ليستريح

وتتمثل رؤية الشاعر القومية فى رؤيته المستوعبة لمعارك حرب أكتوبر على امتداد الجبهتين الجنوبية والشمالية فى سيناء والجولان . فى أغنية جماعية إلى ساعة الصفر «التى فجرت ينابيع الدم المصرى والسورى . وتجمعت فى قوة فجرت الشمس ومزقت ثوبها . وحققت الثأر من عذاب السنين . وهدمت القلاع والدشم التى طالما أوهمتنا بالرعب والخرافات . هكذا يغنى الشاعر للجولان وسيناء . ولرمضان وتشرين . وللدم المصرى والسورى الذى تفجر فوق الماء والرمل . عبر القناة وعلى قمم الجولان :

هتكنا حين حان الصفر ثوب الشمس
فانهتكا
وفجّرنا ينابيع الدم المصرى والسوّرى فوق
الماء والرمل
وفجّرنا عذاب سِنِّينا بقنابل الذكرى

وأطلقنا قذائف ثأرنا النارى فانهدمت
قلاع الرعب والدشم الخرافية
وغنّت مصر أغنية
وغنى جند سورية :
هتكنا حين حان الصفر ثوب الشمس
فانهتكا
وقصّ الكون قصّتنا
فياجولان .. ياسيناء
أعيدى .. ماروى .. وحكى

فى الديوان الثانى . «شعر العبور إلى المستقبل من وحى ٦ أكتوبر» . للشاعر حسن فتح الباب . وهو شاعر كبير غزير الإنتاج . كثف الشاعر معارك حرب أكتوبر . العبور وحصار السويس ونضال السويس ومزجها بصور معارك حرب الاستنزاف . وتداعيات الهزيمة . التى حفزت جنودنا للثأر واسترداد الأرض والكرامة والكبرياء الوطنى والقومى . فالحس التاريخى ظاهر فى هذه القصيدة التى كتبها الشاعر فى شكل رباعيات . وخصّ كلّ رباعية منها بصورة معركة من معاركنا الكثيرة الممتدة بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ . ولعل أجملها تصوير للشاغر لإتمام عمليا ت العبور إلى سيناء فى صور مركبة جميلة تجعل ميزان الحرب فى شكل أكاليل تزين الأرض ويغمر ثوب الحب حيّ الأربعين فى السويس وتنمو غصون الياسمين على ضفة سيناء . ويعود جنودنا إلى سيناء كالعصافير يحملون مع النجوم مصباح العبور :

لم يزل يغزل ثوب الحب «حى الأربعين»

بعد أن زينت الأرض أكاليل اللهب
وارتمت بين يدى حطابها أحشاء ذئب
وعلى الضفة تخضر غصون الياسمين
والعصافير التى عادت إلى سينا تطير
(حبنا أقوى من الموت . . إذا البدر احتجب
تحمل الأنجم فى الصحراء مصباح العبور)

وللشاعر صلاح اللقانى قصيدته « المخاض » . من الديوان الثانى وأغنية لسيناء وهى تصوّر أيضًا العبور كميلاد جديد للشاعر والمقاتل ولسيناء ومصر كلّها فقد اغتسل الكل بالدماء والدموع حتى شفوا وتطهروا وارتفعوا وانتهى زمن الصمت والهزيمة الذى أسكت الشاعر . فقد صنعت دماء الأبطال الراية الجديدة والميلاد الجديد فى مخاض حرب أكتوبر وعبور قناة السويس إلى سيناء :

يامصر كان الموت يمشى فى عروقى كاسحا
كالسيل والسكين مجنونًا ضرير
يمضى . . فتنتفض الدماء كراية حمراء
نكّسها الزمان على تراب اليأس
فى طريق الهزيمة
ويجف نبع الشعر فى شفتى أعوامًا طوالا
صوتى عَيِىٌّ بالكلام كأننى طفل غرير
واليوم حين أراك ترتعشين فى ماء
المخاض أصبح ما بين القبور
إنى ولدت فقيدوا تاريخ ميلادى
على رمل العبور

حرب أكتوبر
فى الرواية العربية الحديثة

الرواية هى أكبر الفنون الأدبية عمقا واتساعاً ، لأن معمارها الفنى الكبير يشمل أساليب التعبير الشعرية والقصصية والدرامية ويتعداها إلى تصوير المجتمعات والجموع ، واستيعاب الأزمنة ، والتنبؤ باتجاهات المستقبل والتعجيل بها . لهذا خلدت الرواية العالمية نضال الشعوب والجماعات والأفراد فى الحروب الكبرى وحروب التحرير الإنسانية من «الحرب والسلام» لتولستوى ، إلى «وداعاً للسلاح» لهيمنجواى ، مروراً بروايات : «الدرن الهادئ» لشولخوف «الأمل» لمالرو ، و «أفول القمر» لشتاينك ، وغيرها من الروايات التى عنيت بالتعبير عن أعظم الكفاحات الإنسانية ، والتى بذلت خلالها البشرية أغلى مالديها من دماء وأرواح فى سبيل تحرير الاوطال والبشر ، من أجل حياة كريمة ، ومن هنا صنعت الحروب روائييها الكبار ، مثل تولستوى وشولخوف وهيمنجواى ومالرو .

ومع أن حرب أكتوبر هى أعظم الحروب العربية الحديثة تحقيقا لقدرات الإنسان العربى فى اقتحام حصون العدوان وتحديه وقهره ، إلا أن الأدب المعبر عنها ظَل أقل من مستوى البذل العربى والتضامن العربى والوحدة العربية الفورية التى خضبتها الدماء العربية المشتركة فى معارك أكتوبر . فقد اقتصر التعبير الأدبى والفنى على ما يمكن تسميته بفنون اللحظة الحماسية من اللوحة التشكيلية إلى اللوحة الأدبية والقصة القصيرة والقصيدة الشعرية . أما الفنون المركّبة ـ كالرواية والمسرحية ـ التى تتطلب الكثير من الوقت والفكر والفن لبنائها وتركيبها ـ فإنها ظلت بعيدة عن حرب أكتوبر ـ واحتفظ ماصدر منها بطابع العجلة والتعبير الإعلامى التقريرى المباشر فافتقد بذلك أهم خصائصه الفنية والأدبية . مثل رواية إسماعيل ولى الدين . «أيام من أكتوبر» فهى عمل إعلامى أقرب إلى التحقيق الصحفى . يحاول اتخاذ شكل القصة المطولة ـ قدّمت كرواية كتبت فى وهج المعركة فى التاسع عشر من نوفمبر ١٩٧٣ ، وصدرت فى طبيعتين وعامين متواليين « ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ » ، تقع فى ٣١ صفحة من القطع الكبير « تحاول تصوير انعكاسات أحداث المعركة طوال أيام أكتوبر على عدد من شخصيات الرواية المصابين بهم نكسة يونيو ١٩٦٧ . وتفتقر إلى أساسيات البناء الروائى . فكلها مقدمة من خلال السرد الذى يقوم به « سعيد » الراوى التقليدى العليم بكل شىء حتى ليعرف عن الشخصيات الكثير مما لاتعرفه عن أنفسها .

الغاية التى يرمى اليها إسماعيل ولى الدين بسيطة وطيبة ـ من وراء هذا السرد والوصف الخارجى وأسماء الشخصيات وملخصات لقصص حياتهم غير المترابطة والمفتقدة . للتداخل والتزاوج والتعقيد بين الشخصيات ، من خلال هذا كله يريد إسماعيل ولى الدين ببساطة أن يؤكد لنا ما هو معروف للجميع من أن نكسة يونيو لم تكن هزيمة حقيقية لأننا لم نحارب ولم نستعد للحرب ولم نتصورها علميًا بل

اعتبرناها مجرد مظاهرة عسكرية ولهذا هزمنا قبل أن نحارب .

ويشرح إسماعيل ولى الدين فى أسلوب تعليمى . أقرب إلى أسلوب المقالات الصحفية . كيف دمرتنا الهزيمة من الداخل وكيف ظللنا ننتظر الحرب الرابعة حتى جاءت وغسلت عارنا الذى لا يد لنا فيه . ومن ثم يعرض إسماعيل ولى الدين فى صفحاته القليلة نصوص البيانات العسكرية وخطاب الرئيس وعناوين الصحف الرئيسية وتفاصيل اجتماعات مجلس الأمن . استخدام البترول كسلاح . مواقف الدول الكبرى . بل إنه لينقل مقتطفات من أقوال الصحف العالمية عن الحرب . دون أن يوظف هذا كله فى عمل تسجيلى . إذ إن دوره ككاتب اقتصر على النقل من الصحف دون تصرف بل إن شخصياته الصماء البكماء العاجزة عن الحركة إلا من خلال السرد والوصف الخارجى تدور كلها فى عالمها المنعزل . فهى محشوة حشوًا كيفما اتفق بغرض الإيهام بوجود شخصيات روائية فعلينا أن نتابع فى هذا الحيز الصغير أخبار الأسر والمقاهى بل العاهرات أيضا من خلال الوصف الخارجى للأحياء والأموات وشوارع المدينة القديمة وكلها أوصاف محشوة حشوا لإطالة عمل يطمح إلى الشكل الروائى . وأن يصنّف فى أدب أكتوبر العربى .

وكى يشدنا إسماعيل ولى الدين إلى الحرب يدلى ببعض الأخبار عن الشهداء أبطال حرب أكتوبر . ويتنقل بين العواصم العربية ومدن الأعداء وعواصم العالم لنتعرف إلى الأفعال وردود الأفعال وكلها معروفة لنا جميعًا . لأنه من منا لم يعش المعركة طوال حرب أكتوبر بكل مشاعره وحواسه يقرأ ويسمع ويتقصى ويقارن . هذه على سبيل المثال سطور من الوصف العام الذى يستغرق معظم صفحات العمل : « مر أسبوعان منذ بداية القتال كأنهما حلم رائع . معركة الدبابات فى سيناء تدخل يومها السابع . العدو يحاول إصابة مدينة بور سعيد . ولكن قواتنا تصدّه تماماً ومحاولة أخرى للعدو الذى أصبح يتخبط بعد استدعائه الاحتياطى

الأخير وبعد تغيير قادته للمرة الثانية ، ومحاولا التسلل غرب الدفرسوار على بعد كيلو مترات من الإسماعيلية بعدة دبابات تثير الذعر والشكوك والقلاقل ، والمراسلون العالميون يكشفون بالصور عن مدى خسارة إسرائيل ، مئات الدبابات التى كانت فى مسرح العمليات محترقة ، محطمة تحت تأثير النيران المصرية .. مئات من القتلى والجرحى ».

على هذا النحو المباشر يسترسل إسماعيل ولى الدين فى نقله لمادته من أخبار الصحف والبيانات الرسمية . فهو بعمله هذا يقدم الدليل على أن تغليب العام على الخاص يفقد العمل الفنى هويته ، إذ لم يكن العمل على مستوى الحرب من حيث الشكل الفنى . الفن يلجأ إلى الخاص ليعبّر عن العام ، وعندما يعرض العام فإنه يمزج بين الخاص والعام بحيث تعيش الشخصية المسألة العامة وكأنها قضيتها الخاصة . وهذا يذكرنى بملاحظة هامة جاءت فى دراسة الدكتورة سامية أسعد عن الرواية الفرنسية المعاصرة ونوعية تعبيرها عن الحرب إذ تقول : « بعد أن نشبت الحرب العالمية الثانية ، واحتلت فرنسا ، التزم أغلب الروائيين الصمت وأفسحوا المجال للشعراء .. وسرعان ماعادوا إلى الحديث بعد التحرير ، كانوا لا يزالون تحت تأثير الأحداث شأنهم فى ذلك شأن المجتمع الفرنسى كله . ويتعجلون اللحظة التى يلعبون فيها دور الشهود ولكن شهادة هؤلاء القادمين الجدد إلى عالم الرواية لم تتعد الوثيقة ، ولم تبلغ الوجود الأدبى فى كثير من الأحيان» . ولعل هذا ينطبق تماما على عمل إسماعيل ولى الدين الذى أجهضه التعجل والمباشرة ومحاولة السبق الصحفى ، هكذا لم ترق رواية إسماعيل ولى الدين وبعض الأعمال المماثلة إلى مستوى روايات الحرب العظيمة .

لذلك سررت حقًّا عندما وجدت مجموعة من روائيينا العرب ينتمون إلى عدة أجيال أدبية وأقطار عربية يبدعون أخيرًا رواياتهم عن حرب أكتوبر العربية

المجيدة . فيسدون بذلك فراغ الفن الروائى فى خريطة أدب أكتوبر . ويشقون طريقًا جديدًا للرواية العربية الحديثة . بعد أن استهلكت موضوعاتها التقليدية فى المدينة والقرية والروائيون العرب هم د . عبد السلام العجيلى وحنامينه . وكوليت الخورى من سوريا . وجمال الغيطانى ويوسف القعيد وسعيد سالم من مصر . ومبارك ربيع من المغرب . أما الروايات فهى : « أزاهير تشرين المدماة » للدكتور عبد السلام العجيلى . « العودة إلى القنيطرة » لكوليت الخورى « المرصد » لحنامينه . و « الرفاعى » لجمال الغيطانى . « فى الأسبوع سبعة أيام » و « الحرب فى بر مصر » ليوسف القعيد . « عمالقة أكتوبر » لسعيد سالم . « رفقة السلام والقمر » لمبارك ربيع . وسنتناولها جميعا بالدراسة والتحليل

ويقول الدكتور عبد السلام العجيلى . فى تقديمه لروايته « أزاهير تشرين المدماة » إنه يهديها « إلى من يكونون فى الحرب والسياسة على مستوى شهدائنا وأبطالنا تضحية ومقدرة فيحولون دون أن تميع . فى الآتى . انتصاراتنا الجزئية وبطولاتنا الفردية بدون أن تتحول - كما فى الماضى - إلى هزائم جماعية وانتكاسات شاملة وانكسارات مخزية » وهو إهداء عميق المغزى . يصدر عن أديب كبير ومناضل عربى كبير تمرس بالانتصارات والانكسارات العربية منذ شارك متطوعًا فى جيش الإنقاذ العربى لفلسطين بقيادة فوزى القاوقجى . فتلقى الصدمة الأولى وتمرس بتجارب الحرب والسياسة والأدب عضوًا بمجلس الشعب السورى ووزيرًا للخارجية والثقافة وأديبًا عربيًّا أصيلاً يرتبط بالتراث العربى . ويثرى الأدب العربى الحديث بنتاج عربى مميز بعروبته وصدق تعبيره . عن معارك الإنسان العربى الداخلية والخارجية .

ويصف الدكتور العجيلى عمله الروائى « أزاهير تشرين المدماة » بأنه « عمل أدبى مقتضب لم يتسع إلا للمع ضئيلة من أحداث حرب تشرين الأول عام ١٩٧٣

وبطولاتها فى مختلف ساحات القتال وأنا أعترف بعجزى عن إيفاء هذه اللمع حقها من الوصف فيما كتبت . فالكتابة مهما بلغت من الإعجاز لا تستطيع الإحاطة بالواقع كل الإحاطة . فكيف إذا كان الواقع خوضا للمخاطر وتضحية بالنفس والسير إلى الموت اختياريًا ودون تهيب . لصد المعتدى وصيانة تربة الوطن المقدسة ؟ ويقول عن أحداث روايته : إنها واقعية وإن أسماء شهدائها واقعية أيضًا . أما الخيال فيوجد فى الإطار الروائى وفى الأسماء المستعارة لأبطالها الواقعيين الأحياء .

أما الإطار الروائى فقد أبدعه الروائى الكبير فى داخل مستشفى عسكرى حيث تتدفق صور حرب أكتوبر « تشرين » مع تتابع وصول جرحى المعارك إلى المستشفى .. وتروى وقائع حرب تشرين إما على لسان الراوى الرئيسى . الملازم سامى . أحد ضباط الاستطلاع المصاب فى أولى معاركها على الجبهة الشمالية « الجولان » أو أن ترد أحداث الحرب على ألسنة أبطال الحرب .. وقد ساعد هذا الإطار أو الشكل الروائى على إثراء أسلوب الأداء الفنى فى التعبير الشامل عن معارك أكتوبر . بتقديم نماذج معبرة عن وقائع الحرب فى شتى الجبهات والأماكن فى الجبل والبحر والجو .. وتمكّن الروائى باقتدار من التنقل بين الأمكنة والمعارك والشخصيات .. كما اغترف من مختلف الأزمنة باستخدام الفلاش باك وتيار الوعى ولغة الحلم فى استرجاع الماضى البعيد والقريب والمزج بينهما وبين الزمن الحاضر . وفى التطلّع للمستقبل والتنبؤ به . كما حرص الروائى على الرؤية القومية لحرب أكتوبر . فمع أن الرواية تصور وقائع الحرب على الجبهة السورية . إلا أنها لم تغفل لحظة واحدة عن ذكر وقائع العبور والتقدم على جبهة قناة السويس وسيناء

كذلك تكررت إشارات الروائى . بحس قومى عربى أصيل . إلى المشاركة العربية فى حرب أكتوبر فذكر بطولات الفلسطينيين والعراقيين والمغاربة وغيرهم من أبناء الأمة العربية فى تلك الحرب . وقد صورت هذه الرواية القومية وحدة التراب

العربي وخطورة الأطماع الصهيونية فى كل أجزاء الوطن العربى أى أنها أكدت وحدة الآلام والآمال العربية وجاء تصوير رواية « أزاهير تشرين المدماة » لمعارك حرب أكتوبر (تشرين) كجزء من معارك الأمة العربية المتصلة مع العدوان الصهيونى . .

وفى هذه الأجزاء السياسية من الرواية علا صوت الروائى السياسى وغلبت الحماسة على الفن الروائى فجاء حديثه القومي أقرب إلى الخطابة والتقرير السياسى وله بعض العذر فى ذلك . فالقضية ليست عادية . إنها قضية الشعب والوطن العربي كلّه ويصعب أن يتناولها الكاتب القومى دون حماسة . غير أنى كنت أتمنى على الروائى الكبير لو كبح جماح قلبه وكثف من الفقرات الطويلة عن الأطماع الصهيونية وعن الصراع العربى الإسرائيلى . مع أنها تعبر عن رؤية سليمة . وفكر قومى لا خلاف عليه . ولكن ليس مكانه فى العمل الروائى بل فى المقالات والأبحاث والكتابات السياسية المباشرة . ولا شك أن كاتبنا الكبير الدكتور عبد السلام العجيلى هو أوّل من يعرف هذا جيدًا . وربما أضاف تلك الفقرات الإعلامية حتى تصلح الرواية للعمل السينمائى الدعائى ؟

ومن جهة أخرى . فقد عنى الروائى بالمزج بين الخاص والعام فى تصويره لمعارك حرب أكتوبر وشخصياتها . ثقةٌ منه بأن الفن يلجأ إلى الخاص للتعبير عن العام . ويمزج بين القضية الخاصة والقضايا العامة بحيث تصبح قضية البطل الأولى . الخاصة والعامة معًا . قضيته الأثيرة .

أما حرب أكتوبر « تشرين » فقد صورها د . عبد السلام العجيلى كفرح وعرس وتحقيق لكل الأحلام المؤجلة . وكمفاجأة للجميع أيقظت كلّ مشاعرهم القومية نحو تحرير الأرض العربية . وقد حرص كاتبنا . فى المقام الأول على تأكيد الثقة فى الإنسان العربى . والرجل العربى البسيط . الذى أظهرت الحرب قدراته الكامنة

وإمكانياته البشرية التى كشفت عنها الحرب ، فى الاقتحام والتصدى للعدوان واستخدام الحيلة والخداع والذكاء والتدريب والشجاعة فى مقاومة العدو المتفوق فى السلاح . فالقضية قضية الإنسان بالدرجة الأولى وليست قضية السلاح . وجسد الروائى هذا المعنى الكبير فيما صوره من معارك الطيران بين طائرات الميج ١٧ العربية الصغيرة وطائرات الفانتوم والميراج الصهيونية الضخمة .. وفى معارك البحرية بين زوارق الطوربيد العربية الانتحارية الصغيرة وبين قطع الأسطول الصهيونى الكبيرة والكثيرة .. وفى البطولات الفردية التى واجه بها الجندى العربى البسيط بشجاعته وإيمانه وإصراره على مقاومة العدوان ومنعه من المرور ، معتمدًا على حسن تدريبه وتمكنه من سلاحه الصغير فى مواجهة مجموعات كبيرة من قوات العدو .. كما فعل جندى المشاة الأمى البسيط الشهيد عبد الله رجب رامى المدفع الصاروخى « آربى جى » المضاد للدبابات ، عندما أوقف بمفرده تقدّم كتيبة دبابات إسرائيلية فى طريق سعسع ، فرقى إلى رتبة الملازم الأول .

أما «أزاهير تشرين المدماة» فقد قصد بها المؤلف، فى اعتقادى ثمار الحرب ودروسها متى ثبتتها دماء الشهداء ، كما فعلت دماء الملازم محمود بأزهار الطريق إلى بحيرة طبرية وبلدته « الطيرة » من أجل تحرير أرضنا المحتلة والمغتصبة . أو كما قال الملازم سامى : « أزهارنا التى جنيناها فى تشرين ، تثبتت بدم شهدائنا . دم الشهداء هو الذى يحول بينها وبين التفتت والضياع .

تحتشد رواية « أزاهير تشرين المدماة ، بالكثير من معارك حرب أكتوبر (تشرين) وتحرص على خلق وشائج خاصة بين شخصياتها العسكرية والمدنية ، وإبداع علاقات إنسانية دافئة بالوفاء والإخلاص والحب .. كالعلاقة بين الجندى نعمان وضابطه الملازم سامى ، وبين الملازم سامى وخطيبته سلوى ، وبين الملازم الشهيد وزوجته ياسمين ، وبين الأخيرة والجندى نعمان ... وغيرها من العلاقات

الخاصة الحميمة الممتزجة بأحداث حرب أكتوبر ومعاركها وبطولاتها وانكساراتها أيضا ... فلازم الاستطلاع « سامى » ، مدرس الأدب العربى قبل استدعائه للحرب ، أصيب إصابات بالغة فى أولى عمليات الاستطلاع . كان لديه دافع خاصّ فى التقدم السريع نحو الأرض العربية المحتلة متمثلاً فى الوشاح الذى أهدته إياه خطيبته سلوى ليغمسه فى مياه بحيرة طبرية العربية . ولكنه أصيب وامتلأ الوشاح بدمه .. والملازم الفلسطينى الشهيد محمود اختلف مع زوجته ياسمين ، رئيسة الممرضات بالمستشفى العسكرى ، خلافاً حادًّا أدّى إلى الطلاق بسبب يأسه من الجيوش العربية بعد هزيمة ١٩٦٧ واعتزامه الهرب للعمل بإمارات البترول . بينما تمسكت هى بالأمل فى قيام حرب جديدة تعيدهم إلى بلدتهم الفلسطينية المغتصبة « الطيرة » . وقد عاد الملازم الشهيد ليلتحق بكتيبة الاستطلاع فى حرب أكتوبر ، وتغلب شوقه للعودة إلى الأرض المحتلة على التزامه بأوامر قيادته . فأسرع نحو بحيرة طبرية تحقيقًا لحلم زوجته القومى وإرضاءً لها ، فاستشهد تاركًا دمه يروى أزهار تشرين .. هكذا يمتزج الخاص والعام امتزاجًا موحيًا فى رواية الدكتور عبد السلام العجيلى « أزاهير تشرين المدماة » .

وتتجلّى الرؤية القومية لحرب أكتوبر فى كل فصول الرواية العشرين .. فالنداء الموجه إلى المحاربين العرب كلّه قومية وعروبه فيقول النداء : « إنكم تدافعون اليوم عن شرف الأمة العربية وتصونون كرامتها وتحمون وجودها وتضحّون كى تحيا الأجيال القادمة هانئةً مطمئنة .. سلاحكم بين أيديكم وديعة فأحسنوا استعماله .. وشرف الجندى العربى فى أعناقكم أمانة ..ومستقبل شعبنا فى عهدتكم . فابذلوا المستحيل دفاعًا عنه » . وعندما يكتئب ملازم الاستطلاع سامى وتحاصره نيران العدوّ ، يعطيه مساعده نعمان الراديو « الترانزستور » ليسمعه أخبار العبور المفرحة على جبهة القناة .. فالانكسار فى جبهة يقابله الانتصار فى جبهة أخرى .. والترابط

القومى بين جبهتى القناة والجولان . صوّره الروائى فى هذه الصورة القومية . فيقول الراوى الملازم سامى : «كنت حزينًا فى تلك الساعات . إذا كان شىء من الخوف قد دبّ إلى نفسى من وحشة المكان وعزلتنا عن القوات الصديقة وانفرادنا فى بقعة ليست لنا فيها حماية مباشرة . فقد تغلبت عليه بالتظاهر بالصرامة أمام ضعف مراسلى الغرّ وكآبة السائق وقلق المساعد نعمان . الذى فارقه مرحه المعتاد وحل محله صمت ثقيل .. فجأة قال لى وهو يعطينى الترانزستور لأضعه على أذنى : أخبار طيبة من جبهة القناة .. قناة السويس إنهم يعبرونها » .

وتؤكد الرواية قدرات الإنسان العربى فى تصويرها لمعارك حرب أكتوبر . التى قام بها رجال بسطاء من الضباط والجنود لا يتمتعون بقوى خارقة . ولم يكن أحد يتصور أن بإمكانهم تحدى القوة المسلحة الضخمة للعدو والتغلب عليها . والرؤية العقلانية للحرب هى السائدة فى الرواية . فقد وجد فى الحرب الشجعان والجبناء فى الجانبين العربى والصهيونى . واجتمع فى الحرب النصر والهزيمة . والإنسان العربى قوى بإرادته وتصميمه وقدرته على المقاومة . كما اتضح فى طيارى الميج ١٧ العرب البسطاء غير المؤهلين تأهيلاً علميًّا عاليا . وفى رجال البحرية والمشاة البسطاء أيضا . وقد أثبتت حرب أكتوبر كل هذا . وكشفت عن الجوهر العربى النبيل فى معارك المصريين والسوريين والسعوديين والعراقيين والفلسطينيين والجزائريين والمغاربة وسواهم من أبناء الأمة العربية الذين جاء ذكرهم فى رواية « أزاهير تشرين المدماة » . وقد مزقت حرب أكتوبر أفكارنا القديمة وأنهت كل الشكوك فى قدراتنا . وغيرت من المعنويات والنفسيات فلم يعد هنالك شكّ فى قدرات الأمة العربية كما يقول الملازم سامى للممرضة ياسمين فى نهاية الرواية : « إن أحدا ماكان يصدق قبل تشرين هذا العام أننا ندخل الحرب وأن نحارب كما فعلنا لا تستغربى إذن أن يجيئى الأمر فى أية ساعة بأن أعود إلى شاطئ طبرية»

هذه هي حرب أكتوبر في الرؤية الواقعية والرؤية المستقبلية كما صورتها رواية الدكتور عبد السلام العجيلي « أزاهير تشرين المدماة »

« العودة إلى القنيطرة » رواية قصيرة أو قصة قصيرة طويلة (٩٨ صفحة قطع متوسط) . فيها الكثير من سمات القصة القصيرة مثل التركيز على فكرة محورية أو حدث واحد . والزمن المحدود . والشخصيات القليلة . أما الفكرة المحورية أو الحدث الرئيسي في قصة كوليت الخوري . فهو تهديد العدو الصهيوني بالاستيلاء على دمشق . وقيامه بالاختراق الرئيسي في طريقها . وقصف أحيائها ومنازلها الآهلة بسكانها العرب ومن هنا جاءت الرواية أقرب إلى قصيدة حبّ لمدينة دمشق العربية الجميلة . دمشق التاريخ والعروبة . وأغنية عشق تتغنى بدمشق وتقدم تنويعات على حبها ؛ لذا امتلأت الرواية بالوصف الخارجي . والعبارات الحماسية المكررة . وهذا أدّى إلى جمود الحدث عند حدود الإعلام به . وكاد أن يوقف تطوره ونموه كما قامت الكاتبة بحشو روايتها بفصول زائدة لقصة فرعية خرجت عن السياق العام وأضعفت من تطور الحدث الرئيسي . كقصة « كاميليا » .

ويبدو لي أن الأديبة الفنانة أرادت أن تعبر عن حبها لدمشق وعن دفاع أهل دمشق عن مدينتهم العريقة العظيمة وافتدائها بأرواحهم وقلوبهم . فقامت باستعراض سطحي لبعض النماذج من سكان دمشق . من العسكريين إلى المدنيين . ومن الرجال إلى النساء . ومن الفتيان إلى الفتيات . وقدمت روايتها بأسلوب الراوي التقليدي . وجعلت لها شخصية رئيسية . المحامي المثقف « سهيل » الذي يكلّف بمهام شبه رسمية في الداخل والخارج . ويصاحب وفود الصحفيين الأجانب ويقدم لهم دفاعه الحماسي الحار عن قوة دمشق وتصديها للعدوان وردّه والانتصار عليه .

ولعل أجمل ماصورته قصة كوليت الخوري « العودة إلى القنيطرة » . هو

تصويرها لمدينة دمشق خلال اللحظات الحرجة من حرب أكتوبر وقصفها بقنابل العدو الصهيونى التى وجهت إلى الأحياء والمساكن والمدنيين . بغية الإرهاب وإضعاف الجبهة الداخلية ، وردود الفعل القوية لأهلها التى أبطلت مفعول الإرهاب الصهيونى ولم تحقق أهدافه . وقد صورت الأديبة حبّها لمدينة دمشق خلال المونولوج الداخلى لسهيل ، الشخصية الرئيسية ولا أقول البطل . لأن البطولة فى هذه الرواية معقودة لمدينة دمشق القوية الصامدة بكل زخم التاريخ العربى المجيد . فسهيل يتغزل فى مدينة دمشق ، وكوليت الخورى تضع على لسانه وفى مونولوجه الداخلى عبارات جميلة عن دمشق « قلعة التحدى » . قلعة صامتة ترتاح على سفح قاسيون » .

لقد ترك سهيل مدينته دمشق إلى بيروت فى مهمة استغرقت ليلة واحدة ، وغمره الشوق لحبيبته دمشق : « وهو المحامى الذى لا يملك من أموال الدنيا شيئاً . يحس فجأة بأنه أغنى إنسان فى العالم . إنسان يملك دمشق بأكملها . دمشق التى تتألق تحت القنابل وعلى الرغم من القنابل . دمشق الرابضة على صدر الدهر تاريخاً . دمشق التى تركها أمس فقط . متى يصل إليها ؟ الطرق طويلة أم أنها تطول ؟ آه لكم طال عن دمشق غيابه » .

وتتكرر أمثال هذه العبارات الحماسية المباشرة لتصور حب أهل دمشق لها فى أوقات حرب أكتوبر العصيبة .

غير أن التعبير عن حب دمشق بالصور التى قدمتها الكاتبة كان أكثر حيوية واقترابًا من فن الرواية والقصة ، كصور الفتيات الصغيرات وهن يقمن بدهان مصابيح السيارات باللون الأزرق ، وتصوير مشاعر أسرة سهيل عند رؤيتها الطائرات الصهيونية تلقى بقنابلها فوق بيوت دمشق وأهلها ، وما قالته أم الجندى المصاب فى الحرب بعد أن رأت ساقيه مبتورتين ، بأن هذا هو ثمن النصر .

فهذه وغيرها من الصور كانت أغنى فى تعبيرها عن جو الحرب فى مدينة دمشق من العبارات الحماسية والتعليقات الخطابية المباشرة التى حشت بها الكاتبة قصتها .

تبدأ الراوية بسهيل فى طريق عودته من بيروت إلى دمشق بعد أن أنهى مأمورية « شبه رسمية » بنجاح . وفى مركز الحدود السورى يلتقى سهيل بجموع الصحفيين الأجانب يهرولون إلى دمشق ، بعد أن هدد ديان ، وزيرحرب العدو فى حرب أكتوبر بالاستيلاء عليها ، وحدّد بغطرسته المعهودة موعد ظهر اليوم التالى للالتقاء بالصحفيين الأجانب فى فندق السمير اميس الواقع فى قلب دمشق ، وتقديم الشمبانيا إليهم . ومع أن المحامى سهيل استخدم كلّ طاقاته البلاغية فى نفى مزاعم العدو الصهيونى ، وتأكيد قوة دمشق واستماتة أهلها فى الدفاع عنها ، حتى أنه وجه إلى الصحفيين الأجانب دعوة مماثلة للقاء فى مدينة القنيطرة بعد تحريرها من الاحتلال الصهيونى .. وبالرغمَ من ذلك كله ظلّ سهيل قلقاً فى انتظار الموعد الذى حدده ديان لدخوله دمشق .

ولكى يبدد سهيل قلقه ، اتصل بصديقه الضابط الكبير مروان ، الذى أكد له سلامة الموقف العربى ونفى أكاذيب الصهيونية وحربها النفسية . ثم أخذ سهيل القلق يتحرك ليلتقى بأهله وأصدقائه ومعارفه ويستمع إلى أسئلتهم القلقة أيضا عن الحالة فى دمشق ، وعن مدى صحة تهديدات ديان بغزو المدينة ودخولها حتى أنه لم يعد يتحمل سماع المزيد من تلك الأسئلة . فلجأ فى آخر الليل إلى « كاميليا » صديقته من بنات الليل ليجد لديها نفس القلق الحماسى لافتداء دمشق والدفاع عنها . ويدركه التعب والإرهاق فينام ببيتها . وليصحو بعد الموعد المحدد من قبل وزير حرب العدو ، ليجد دمشق قوية صامدة .

ثم تختتم الرواية فى فصل ختامى مفاجئ ، غير مبرر وغير متصل بما سبقه ، بسهيل بعد شهور من الحرب ، يدعو كلّ الصحفيين الأجانب ، الذين سبق أن

جاءوا إلى دمشق تلبية لدعوة العدو الكاذبة .. يدعوهم سهيل لتلبية دعوته الأولى للقاء فى مدينة القنيطرة العربية المحررة . مع كل الشخصيات التى جاء ذكرها فى الرواية . تلك الشخصيات الهامشية المقدمة فى الرواية عن طريق السرد التقريرى والوصف الخارجى . وقد زجّت الكاتبة بآرائها الحماسية على ألسنة الشخصيات . فحولت أغلبها إلى دمى تنطق بأفكارها وتفتقر للتمييز إذ يغلب عليها اللون الواحد والموقف الواحد . وإنى أذكر هنا نموذج الكاتبة الصحفية « سهيلة » التى عجزت عن الكتابة بعد أيام طويلة من العمل الحماسى ليل نهار فى صحيفتها . وأعلنت عدم جدوى الكلمة وعدم فعاليتها ودخلت بذلك فى المناقشة البيزنطية التى ترددت فى صحفنا . خلال حرب أكتوبر . عن الكلمة والفعل وعن فائدة العمل اليدوى وعدم جدوى العمل الفكرى أو الأدبى أو الفنى مع أنه لا انفصال بين الكلمة والفعل . فالكلمة تقود إلى الفعل وتمتزج به . فلا يلغيها ولا تلغيه . فلو لم تكن للكلمة قيمتها ودورها لما أقدمت الكاتبة على كتابة روايتها « العودة إلى القنيطرة »

« الرفاعى » رواية قصيرة (١٤٠ صحفة قطع متوسط) أقرب إلى التسجيلية عن حرب أكتوبر . وأقرب إلى رواية السيرة أو الشخصية الواحدة . فهى تحمل اسم بطل واقعى من أبطال الصاعقة المصرية وقادة حرب أكتوبر الشهيد العميد، إبراهيم الرفاعى . وتصوّر الرواية معارك حرب الاستنزاف ووقائع المعارك التى خاضها الرفاعى . مع مجموعته رقم ٣٩ . خلال حرب أكتوبر حتى معركته الأخيرة واستشهاده . وابتداء من معركة استشهاده يتحول الرفاعى من الواقع إلى الأسطورة فتسرى روحه وسيرته وأعماله فى كل جزء من أجزاء مصر

وقد سبق للروائى والمراسل الحربى جمال الغيطانى أن كتب تحقيقا صحفيًا جميلاً عن شخصية الرفاعى . جمع فيه كل المعلومات العسكرية والشخصية عن

هذه الشخصية الفذة . ونشر التحقيق الصحفى الفريد بغزارة مادته ومعلوماته . بعدد مجلة الهلال الخاص عن حرب أكتوبر ١٩٧٦ ، بعنوان « قصة شهيد ، إبراهيم الرفاعى الأسطورة والواقع » . ثم كتب عنه أيضا قصة قصيرة ، بعنوان « أجزاء من سيرة عبد الله القلعاوى » ضمنها مجموعته القصصية « حكايات الغريب » وتعد رواية الرفاعى بمثابة صياغة جديدة للتحقيق الصحفى والقصة القصيرة المطولة . وهذا يؤكد أهمية هذا الأنموذج الفذ للبطل العربى المحارب ، وثرائه ، وقوة إيحائه . وتمثيله لبطولات القوات المصرية المسلحة . وإمكانياتها العظيمة فى تحدّى العدو والانتصار عليه !

تجنبت هذه الصيغة الروائية الجديدة ، لسيرة الرفاعى وشخصيته . كلّ خطابه أو حشو أو تعليقات مباشرة . بل إن وقائع المعارك والأحداث تنساب وتتدفق والشخصيات تتحرك وتتشابك علاقاتها ، والأزمنة تتداخل . دون تعسف أو انفعال أو خطابية ، فالوقائع وحدها ترسم صور حرب أكتوبر ، بريشة فنان خبير يعرف جيدا موضوعه ومادته وشخصياته ، وقلم مراسل حربى يتميز بالخبرة بالحياة العسكرية ، التى أفادته فى التصوير الدقيق لمعارك حرب أكتوبر .

قسم الروائى روايته إلى ثلاثة أقسام تحمل ثلاثة عناوين : العد التنازلى ، التكوين ، النشور . فى « العد التنازلى » ، وهو أكبر أقسام الرواية ، نطالع وقائع معارك حرب أكتوبر من خلال متابعة تحركات الرفاعى ومجموعته الصاعقة . ونرى صور الشجاعة والتضحية والمغامرة والاقتحام والانتقام والثأر والفرح بحرب أكتوبر ، واستغلال كل ساعة من ساعاتها للانتقام من العدوّ وإيلامه وإيقاع الهزيمة به . وفى القسم الثانى من الرواية «التكوين» ، يرتد الروائى إلى الزمن الماضى القريب ، ليعرض صور هزيمة يونيو وبشاعة العدو فى الانتقام من رجالنا ونسائنا أيضا . ورؤية كل شخصية ، من شخصيات الرواية وأفراد مجموعة الرفاعى ،

للهزيمة البشعة والآلام النارية المكبوتة انتظاراً لقيام الحرب ، كمبرر موضوعى لروعة حرب أكتوبر وعظمة الجندى العربى خلالها . ويندرج هذا القسم من الهزيمة إلى بداية تجمع الجسد العربى الممزق بعد الهزيمة ، ودور الرفاعى البطولى فى عملية استكشاف مدخل سيناء الشمالى وتلغيمه ، وفى معارك حرب الاستنزاف والاستعدادات والتدريبات الجبارة لعبور القناة وتدمير حصون خط بارليف . ويعد القسم الثالث « النشور » بمثابة بعث جديد للرفاعى بعد استشهاده ، بعث كالأسطورة . فالرفاعى ، فى هذا القسم الدافئ ، المؤثر الحزين ، يتحول إلى أسطورة تتحدث عنها زوجته ورفاقه وأفراد مجموعته فتنتشر روحه وسيرته على كل أجزاء مصر . وهى أسطورة تنهض على دعائم واقعية من سيرة هذا الشهيد المحارب العظيم . وهو أسلوب فنى يجمع بين الواقع والخيال ، اتبعه جمال الغيطانى فى هذه الرواية فى تصوير شخصية الرفاعى البطولية كالأسطورة ، ولكنها واقعية بتفاصيلها وعلاقاتها ، ومن هنا فإنها تعبر أعظم تعبير عن إمكانيات شعبنا ، فى خلق الأبطال والقادة والرجال من بين صفوفه وجماهيره .

وقد حرص الروائى على تقديم الرفاعى كأنموذج للبطل الشعبى الممثل لشعبه وعصره ، والتعبير المبدع عن تمثيل الرفاعى لكل مصر فى تصويره لعلاقاته الحميمة بكل مدن مصر وقراها ، التى تنقل بينها وجاس خلالها . وأنه جاء الدنيا ليقاتل دفاعا عن الناس الذين امتزج بهم وأحبهم طوال تنقلاته ، منذ طفولته ، مع والده مفتش الداخلية المتنقل حسب طبيعة عمله ، فى مدن مصر وقراها إلى تحركاته كضابط فى كل صحارى مصر وجبالها وأوديتها وبحارها وأنهارها . « يود لو لملم نفسه من كل جزء عبره يوما ، أن يرى كل هذه المناطق بنظرة واحدة ، فى كل مكان أودع قطعة منه ، وترك مقدارًا من عمره . إنه يفهم علاء ويدرك وحدته . لكنه لايناقشه ، إنه جاء إلى الدنيا ليقاتل عن كل الذين مرّ بهم وعرفهم أو مشوا معه

وحاوروه فى تلك القرى والمدن . عن كل من يعيشون فى هذه المساحات التى طار فوقها بالهيليوكبتر وبالأنتينوف وبالإليوشن . كل من رآهم يرشفون الشاى فى المقاهى . ويحتفلون بأعياد الميلاد ويهمسون بالنجوى . ويمرحون ويتناحون . ويفكرون فى أى شىء سيأتى بعد الغد؟ »

هكذا مزج الروائى بين الخاص العام فى روايته . وجعل البطل يعيش الهم العام كهمّه الخاص . وقد تجلى هذا فى صور الهزيمة الأليمة . سنة ١٩٦٧ التى شحنت الرفاعى وسائر شخصيات الرواية بالدافع والمبرر القوى للتحرق شوقا لقيام الحرب والجسارة فى قتال العدو

وقدم الروائى بطله وشخصياته دون مباشرة أو تعليق . بل اكتفى بتصويره خلال المعارك والتدريبات . وفى علاقاته الحميمة بأعضاء مجموعته . فتكونت شخصيات الرواية من خلال تطور الأحداث . ونمت نموا مقنعا ومبررا . ومع أن رواية الرفاعى من روايات الشخصية الواحدة . فقد اعتنى الروائى بتقديم الشخصيات الفرعية والثانوية وتمييزها بملامح خاصة فى القسم الثانى من روايته . فجاءت شخصيات روايته حية وواقعية من لحم ودم . وليست شخصيات ورقية مصاغة بفكر واحد . ولون واحد وموقف واحد . كما فعلت كوليت الخورى بشخصيات روايتها « العودة إلى القنيطرة » مثلا .

ومن ملامح شخصية الرفاعى التى برزت مع تقدم صفحات الرواية : العلمية فى التعلم من العدو . والإعجاب ببعض أعماله العسكرية المتقدمة . والاعتراف بقدرته على المقاومة والهجوم المضاد والابتكار فى المعارك وتجنب الطرق والأساليب المعروفة فى الكتب والمعارك السابقة . المناقشة الحرة قبل الوصول للهدف والاقناع . العلاقات الإنسانية الحميمة . حبه لزوجته . وحياته البيئية البسيطة الخالية من مظاهر الترف . أخوته الصادقة مع كل الرفاق . فالأكل معًا والنوم معًا

والرحلات معًا . المغامرة المحسوبة وركوب الصعب . تكرار ضرب الهدف الواحد مرتين من مواقع مختلفة .

ولقد عنى الروائى بتصوير تفاصيل معارك حرب أكتوبر وحرب الاستنزاف . واستبطان شخصيات الرواية والجوس فى أعماقها .. وقد مثل الرفاعى الهيكل الرئيسى أو محور الرواية الذى دارت حوله معارك أكتوبر . والتى صورها الروائى بدقة المراسل الحربى ورؤية الفنان الشمولية الحساسة مما جعلنا نعيش الحرب ونحبس أنفاسنا مع تطوراتها ومعاركها الملتهبة والدموية . كما اهتم الروائى أيضا بتصوير معارك بناء قواعد الصواريخ وحرب الاستنزاف كجزء لايتجزأ من معارك حرب أكتوبر . ولايتسع المجال لذكر تفاصيل المعارك ، فيكفى أن نشير إلى أنها شملت كل المواقع من الصحارى والجبال إلى البحار والجزر ، واستخدمت فيها كل الأسلحة الصغيرة والكبيرة من الخنجر إلى الصاروخ . حتى معركة الرفاعى الأخيرة واستشهاده فى تنفيذ أمر لم يناقشه ولم يقتنع به ولم يقنع به رجاله .

ووفّق الروائى فى تقديم شخصية الرفاعى كمقاتل يحترف الحرب والصراع فى الحياة كتعبير عن يقظة الشعب العربى فى مصر وفى كل مكان من أرض المواجهة العربية مع العدو . فقد حارب الرفاعى مع الفدائيين الفلسطنيين فى الضفة الغربية للأردن ، ومع المقاتلين العرب فى سورية وجاءت هذه الإيماءة القومية للتعبير عن وحدة الهدف والمصير والهموم والآمال العربية .

وكتب الروائى يوسف القعيد روايتين عن حرب أكتوبر . « فى الأسبوع سبعة أيام » ، و « الحرب فى برّ مصر » فى الرواية الأولى . « فى الأسبوع سبعة أيام » . وهى رواية قصيرة تقع فى تسعين صفحة من القطع المتوسط . يصور الروائى أثر الحرب فى قرية مصرية . من خلال استدعاء بطلها الفلاح الشاب مصطفى للانضمام إلى وحدته العسكرية بالجبهة . قبيل قيام حرب أكتوبر . وتداعيات هذا

الحدث وآثاره فى شخصية الجندى الفلاح مصطفى وأسرته وقريته . التى تمثل كل قرى مصر . وتعكس هذه الرواية خبرة كاتبها . يوسف القعيد . المزدوجة بالحياة العسكرية كأحد المجندين طوال الفترة التالية لهزيمة يونيو حتى حرب الاستنزاف . وبحياة القرية المصرية كابن الريف المصرى كما انعكست فى رواياته وقصصه السابقة . ولعل هذه الخبرة العميقة بحياة الفلاح المصرى قد دفعت إلى الرواية بتفاصيل كثيرة عن حياة القرية وعادات أهلها وأساليب الزرع وطرق التعامل مع الطبيعة والحيوان ، مما يشكل تطويلاً زائدًا غير مبرر وحشوًا دخيلاً على حدث الرواية . الذى قصد إليه الروائى بمتابعة أثر الاستعداد لحرب أكتوبر وقيامها فى القرية المصرية والأسرة المصرية والرجل المصرى البسيط العادى غير أن الخبرة بواقع الحياة فى القرية المصرية . وفى الجيش المصرى . أمدّته بالأمثلة الشعبية والأغنيات الشعبية وأغنيات الجنود المصورة لمشاعر الرحيل والوداع والحنين للأسرة والبيت والأرض . وقد استخدمها الروائى استخدامًا فنيا موحيًا .

قسم الروائى روايته إلى سبعة أقسام وخاتمه . تحمل عناوين مصورة لأحداث الحرب وآثارها من بداية استدعاء بطلها للاحتياط إلى انخراطه فى الحرب ، وامتزاج القرية المصرية بأحداث الحرب وأخبارها وتطوراتها . واستخدم الروائى أسلوب التصوير الواقعى والسرد التفصيلى فى تصويره لحياة بطلها الجندى الفلاح « مصطفى » فى قريته وبين أسرته . كما اتبع تيار الشعور والتداعى فى الاغتراف من ماضيه العسكرى لتصوير أزمته فى زمن الهزيمة واللاحرب واللاسلم وانعكاسها فى حياته الخاصة وغربته . ووفق الروائى فى تجسيد الصلة بين الهزيمة وحالة البطالة والخواء والصمت واللافرح التى شملت نفسية بطلها وحياته قبيل قيام حرب أكتوبر . فبينما يمضى البطل فى طريقه إلى معسكره قبيل قيام حرب أكتوبر بيومين . ينساب تيار وعيه إلى الزمن الماضى ليصور خروجه من الجيش بعد ثمانى سنوات

وإحساسه بالكهولة والعجز فى سن الشباب : « بعد ثمانى سنوات سرِّحت من الخدمة . من عشرة أشهر . وصل الأمر إلى الوحدة ذات مساء . بسيطاً وسهلا وواضحاً . كان فى الأمر كلمة تقول : تقرر تسريح المحاربين القدماء من الخدمة . أحسست بالغضب من كلمة القدماء . سنوات عمرى لم تتعد الثامنة والعشرين . ورغم هذا . أنبتت كلمة القديم ، إحساسا بالكهولة والعجز قبل الأوان . لحظة تسريحى من الخدمة . فتشت بداخلى عن إحساس ما . فرح . دهشة . كان بالداخل هدوء وراحة لاطعم لهما » .

وتستغرق معظم صفحات رواية القعيد « فى الأسبوع سبعة أيام » فى تصوير حالة الخداع الاستراتيجية التى اتبعتها القيادة المصرية فى تكرار الاستدعاءات لجنود الاحتياط المصريين وصرفهم وتكرار المناورات وكتمان أمر الحرب حتى على الجنود والضباط المشاركين فيها ممّا حقق المفاجأة الاستراتيجية العظمى فى حرب أكتوبر . فالحديث يتكرر فى القرية بين الفلاحين ومع العمدة وشيخ الخفراء وبين الجنود المستدعين إلى وحداتهم ، عن الاستدعاء « كاختيار لكفاءة نظام التعبئة الجديد » أو كمناورة جديدة . فيدور الحديث بين الجنود على النحو التالى : دى الحرب المرة دى .

قال الزميل القديم : على الأقل كانوا الضباط عرفوا . ظهر على الوجوه اقتناع بحديثه . سألهم :

– طيب النهارده إيه ؟

– أول ساعة من الخميس ٤ أكتوبر . حافكركم مع أول ضوء من يوم السبت الجاى . حانتبدى المناورة .

ولكن الحرب تقوم فتفاجئ الجميع : وتصور الرواية أثر الحرب فى حياة أهل القرية الكبار والصغار ، فالكبار تصالحوا وعقدت الأسر المتعاركة مجالس الصلح

ووحد ضيوف القرية من مهجرى السويس فى الحرب تحقيقا لآمالهم فى العودة إلى مدنهم وبيوتهم ، وتوقف الأطفال عن الدراسة لتحول مدارسهم إلى أماكن عسكرية ، ولكنهم أخذوا يتحدثون عن الحرب وإسرائيل ، وأخذ الشبان يطوفون شوارع القرية وأزقتها ، صائحين منادين بإطفاء الأنوار التى دخلت القرية حديثا . والكل يتابع أخبار الحرب من خلال أجهزة الإذاعة ، وتحركات الجنود فى القرية ، وغارات الطائرات وأصوات القنابل والمدافع .

وتستوعب قرية « الضهرية » أحداث الحرب بطريقتها الخاصة : كتلة ضخمة من الناس والمبانى والأشياء تضحك وتحزن وتستوعب ما يحدث حولها على طريقتها الخاصة . و « الضهرية » تسمع الآن أصواتاً غريبة . سماها شبابها المثقفون العائدون من البنادر البعيدة ، بعد إغلاق المدارس والجامعات ، بأصوات الحرب فى الليل يخرج من الظلام عمود من اللهب الأحمر . يدور حول نفسه . موزعًا ضوءه المخيف على جهات الكون الأربع بالتساوى . اهتزت بيوت البلد أكثر من مرة . قيل إن طلقة مدفع فى المطار هى السبب . الهزّة جعلت البيوت القديمة تنذر أصحابها أيامها أصبحت قليلة . فى السوق شاهدوا الجنود يشترون مايلزمهم . منظرهم محبب إلى النفوس .. أسماء جديدة دخلت حياة الناس .

كما صور الكاتب انعكاس قيام الحرب فى مشاعر الأمهات والآباء والإخوة والأطفال ، من خلال الجوس فى باطن شخصياتها من أسرة الجندى المقاتل مصطفى . وأجاد التنقل بين شخصيته وشخصية أمه وشخصية شقيقة الطفل الصغير « مصطفى » فطالعنا تعبيرات الحنين والشوق والقلق من الأم نحو ابنها الغائب فى الحرب ، وحنين الشاب الفلاح لأرضه وزرعه ولطبيعة القرية الجميلة الوديعة ، وتعظيم الطفل « الغزالى » « لشقيقه المحارب « مصطفى » الذى قال عنه : « إن

مصطفى ضابط كبير ورئيس الجيش كله » . وخاطب رفاقه الأطفال بفخر : « من فيكم له أخ فى الحرب » .

هكذا جاءت حرب أكتوبر فى رواية يوسف القعيد الأولى « فى الأسبوع سبعة أيام » مصورة للجانبين المدنى والعسكرى . ولكن صفحات الرواية شغلت بأحاديث عن مقدمات الحرب ممّا صورت وقائع الحرب وعملياتها العسكرية . فجاءت الرواية عن آثار الحرب ومقدماتها وتداعياتها أكثر منها عن الحرب ذاتها .

وفى روايته الثانية « الحرب فى بر مصر » . قطع يوسف القعيد شوطًا كبيرًا فى اتجاه تحديث الرواية العربية . وتعميقها فنيًّا وموضوعيا . والبعد بها عن المباشرة والخطابة . رغم الطابع التقريرى الذى ظهر فى صفحات الرواية . فمع أن الرواية تتخذ فى سردها وتصويرها الشكل الواقعى . إلاّ أنها تستخدم مفردات الواقع وتصوغها صياغة تعبيرية . تحمل الواقع بالكثير من الرموز والإيماءات والإيحاءات وتطلق العنان للخيال . وتمزج الخاص بالعام . فى رواية يحرص مبدعها على تحميلها برؤية سياسية اجتماعية لحرب أكتوبر وللمجتمع المصرى بعد حرب أكتوبر فيجسد الروائى رؤيته السياسية والاجتماعية والعسكرية للحرب من خلال استشهاد بطلها « مصرى » على الجبهة المصرية فى اليوم الثانى والعشرين من أكتوبر ١٩٧٣ . يوم وقف إطلاق النار . ومن خلال هذا البطل الشهيد تعمق الرواية قصة الرجل العادى البسيط الذى وجد فى الحرب وفى العبور وفى تحرير أرض الوطن كل أمنياته . وأسقط كل همومه الاجتماعية والسياسية وكل طموحاته المحبطة . وتوحد بالحرب حتى صارت قضية التحرير هى قضيته الوحيدة وأصبح القتال هدفه الأسمى . دون انتظار لجزاء أو مكافأة أو ربح مادى أو معنوى .

فتتجسد مصر فى شخصية بطل الرواية «مصرى» . مصر بكل همومها ومشكلاتها وطموحاتها . بكل تاريخها وأصالتها وقوتها المادية والروحية . ومن خلال قضية

اجتماعية سياسية هي قضية الأرض ، المحور الأساسي لحياة الفلاح المصري والقرية المصرية ، يخلق الروائي حدثه الاجتماعي والسياسي ويدفع به ليمتزج بحدث حرب أكتوبر ويبلغ بالحدثين ذروة التأزم في استشهاد « مصري » ، ويتابع مزجه الذكي - المتميز بالوعي السياسي - بين الرؤية الاجتماعية والسياسية وحدث الحرب والاستشهاد . فتروي الرواية أحداثها من خلال عدّة شخصيات ، وتقدم كلّ شخصية أحداث الرواية من وجهة نظرها ، فتلقي أضواءً متعددة على أحداث الرواية وشخصياتها وتدفع بها إلى الأمام وترتد بها إلى الخلف ، فيتعاون الماضي والحاضر في إبداع لوحة روائية بالغة العمق والاتساع تصور التغييرات الحادثة في المجتمع الريفي المصري في زمن الحرب وأثر حرب أكتوبر في مصر ، التي تتجسد في شخصية بطلها العادي « مصري » . ومن ثم تطرح الرواية سؤالها الخطير والعميق المغزى والدلالات : « قد يكون مهما أن نسأل الآن : من الذي حارب ومن الذي استشهد ومن الذي صنع النصر . ولكن السؤال الأكثر أهمية هو : من الذي حصل على التكريم الأدبي .. والمستحقات المالية ؟ إن السؤال ملح وهام .. فحرب أكتوبر هي من صنع الشهداء ومن حقهم ، ولن أمضي في هذه الدراسة في متابعة قضايا الأرض والإصلاح الزراعي والحراسات - التي أثارتها الرواية - على أهميتها ، لأنها تخرج بنا عن نطاق الدراسة . التي تبحث في أدب أكتوبر الروائي بمعناه المباشر المتصل بالمعارك العسكرية لتلك الحرب العنيفة والهامة في تاريخ الحروب العربية الحديثة . على أن أخصها بدراسة أخرى مستقلة حول الدلالات الاجتماعية والسياسية التي تومئ إليها الرواية .

تتمحور رواية « الحرب في بّر مصر » حول تجنيد الشاب الفقير الذكي « مصري » في الجيش بدلاً من ابن العمدة الثري الخامل والمدلل وبذلك يذهب مصري إلى الجندية حاملاً اسم ابن العمدة مخفيًا اسمه وشخصيته الحقيقيين . ولكن

ما إن تبدأ ملامح حرب أكتوبر فى التجلّى حتى يتخلّى «مصرى» عن كل إحباطاته وهمومه وأزماته ويتقدم الصفوف مستشعرًا أهمية الحرب وضرورتها . مسقطًا كل القضايا والهموم الاجتماعية والذاتية . طالباً إلحاقه بالصفوف الأمامية للجبهة . قائلاً لصديقه الأثير : « خجلت من الكلام فى مشكلتى ومصر على أبواب حرب التحرير وإن كل المشاكل والقضايا من الممكن أن تنتظر أيامًا وشهورا وأعوامًا . ولكن تحرير الأرض لم يعد ينتظر أكثر من هذا وعندما يسأله صديقه : « ومن أدراك بحكاية الحرب ؟ » يجيبه قائلا « إحساس خاص . هذه المرة لها رائحة خاصة » هكذا استشعر « مصرى » بصدق وجدانه اقتراب حرب أكتوبر . وقال أيضا : إنه فى الظروف العادية هناك ألف فارق بينه وبين ابن العمدة الآن أصبح الكلّ واحدا فوارق الاسم والرسم والملامح لم يعد لها أية قيمة الآن لابد وأن ينال شرف تحرير مصر ليس مهمًّا بأى اسم ولا بأى صفة ولكنها فرصة وتحدث عن أن قبوله للتجنيد باسم ابن العمدة . جاء حبًّا لمصر وعشقًا لها . وإنما هو أداء واجب وطنى لمصر . فهو يحب مصر إلى درجة العشق . ولايسعده فى حياته الخالية من أية سعادة إلاّ اسمه . وقال : إنه يحب والده لأنه ربط اسمه بأحب بلاد الله إلى نفسه . فيجسد الروائى يوسف القعيد مصر فى شخصية بطل الرواية « مصرى » ذلك الشاب البسيط القادم من ريف مصر . الذى لم ينل من مصر سوى المعاناة والهموم والفقر . ومع ذلك وجدناه فى الرواية يتقدم متطوعا لأداء كلّ المهام الخطرة فى الصفوف الأمامية

ويبدع الروائى فى تصوير شخصية بطله « مصرى » وقت العبور إلى أرض سيناء فى صورة جميلة أقرب إلى لغة الشعر . إذ تحول جسمه إلى شبه قوس مصوَّب لتحرير أرض الوطن : «كان يقف فى مكان مرتفع . شاهدت ملامح وجهه من أحد جانبيها ومن خلفها رمال صحراء لا نهائية . وعندما استدار إلينا قبل تحرك

الفصيلة ، تأكد لى وجود حبات عرق نابتة فوق وجهه رغم اعتدال جو الخريف . أذكر هذا جيدا ، لأن ضوء الشمس بدا لامعًا عندما انعكس على جلد وجهه . بدأت حركة الفصيلة نحو الشرق بطيئة . ولكن « مصرى » كان مسرعا فى سيره لدرجة أنه خيل إلىّ أنّ ماأصاب جسمه فجعل نصفه الأعلى مقوسًا ناحية الأمام . ربما اتهمت بالمبالغة إن قلت إن جسم مصرى بدا على شكل قوس . متجها ناحية الشرق » .

وتصور الرواية جسارة بطلها « مصرى » فى معارك حرب أكتوبر ، واستمراره فى القتال حتى أثخن جسده بالجروح والإصابات . إلى أن استشهد لحظة سماعه بأمر وقف النار ، وهى إشارة عميقة المغزى : « عندما رفع الجندى سماعته تلقى إشارة تقضى بوقف إطلاق النار ابتداء من الساعة ١٨,٤٥ . وقبل أن يستقر الحزن فى أعماقنا ويترسب قالوا : إن مصرى سيموت . جريت نحو خيمته . كان يذبل ، يتلاشى ، مددت يدى ، فردت قدميه . وضعت يديه بجوار جسمه وأسبلت عينيه . أبلغنا قائد الوحدة . طلب منا أن ننظر لنأخذ جثمانه معنا إلى القاهرة . وأوصى بضرورة ترحيله إلى بلده ليدفن فيها . بسرعة تم تجهيزه وتحرير شهادة الاستشهاد الخاصة به . « وابتداء من لحظة استشهاده . يصعد الروائى من توتر أحداث روايته ، بعودة جثة الشهيد مع ضابطه وصديقه الأثير إلى قريته ، فنتابع الإجراءات البيروقراطية فى إتمام بيانات الاستشهاد واعتمادها رسميا من المكاتب الإدارية ، حتى تصل الجثة إلى القرية فتنفجّر مفاجأة اسم الشهيد ، وتتكشّف عملية استبدال اسمه وشخصيته باسم ابن العمدة وشخصيته . ويحاول الأب الحقيق تسلم جثة ابنه الشهيد ومكافأة استشهاده ، غير أنه يحرم من هذا كله . وينسب الشهيد للعمدة ، وتئول إليه مكافأته واستشهاده . بالرغم من كلّ الوقائع والشهود والتحقيقات . ومن ثَم تطرح الرواية سؤالها الخطير حول حرب أكتوبر ،

عن الذين قاتلوا وبذلوا الدماء واستشهدوا فداء للوطن دون انتظار مكافأة أو فائدة . وعن الذين جنوا الأرباح والمكاسب ؟ !

هكذا قدم محمد يوسف القعيد رؤيته السياسية والاجتماعية والعسكرية لحرب أكتوبر فى روايته : « فى الأسبوع سبعة أيام » و « الحرب فى بر مصر » فزوّد الرواية العربية الحديثة بإضافات فنية إلى المعمار الروائى . وعمق الدلالات السياسية والاجتماعية والعسكرية لحرب أكتوبر . وطرح عدداً من التساؤلات الفنية بالرموز والإيحاءات حول الحرب وأثرها فى المجتمع المصرى والإنسان المصرى

أما رواية « عمسالقة أكتوبر » لسعيد سالم . فهى أقرب إلى رواية « أيام من أكتوبر » لإسماعيل ولى الدين . من حيث تغليب العام على الخاص . والاكتفاء بتقديم معارك حرب أكتوبر وأخبارها من خلال أخبار الصحف والبيانات الرسمية من الجانبين . فليس لدى كاتبها أى تصوير واقعى لمعارك حقيقية . لأنه يكتفى بالتقاط معلوماته من الصحف التى نعرفها جميعا . وقد ذكر الكاتب ذلك صراحة فى ختام روايته .

فترد أحداث حرب أكتوبر بأوصاف عامة خارجية متقطعة وكمقتطفات من الأخبار العامة . وإذا جاءت سيرة الجنود الإسرائيليين فإنهم مجرد جرذان مذعورة وجبناء يستسلمون مع أول مواجهة . وكأنما كان شهداؤنا ورجالنا فى نزهة مع عدو ضعيف يستسلم ؟ هكذا تبدو السطحية فى الاستخفاف بالعدو كمحاولة ساذجة لتضخيم صورة المقاتلين المصريين . فعند بدء الهجوم المصرى والعبور « صرخ إسرائيلى فى زميله وقد بال على نفسه : الصهيونيون يهجمون . نحن لانحارب مصر ! ويحدث «عثمان» بطل الرواية المحارب نفسه فى مونولوج داخلى واصفا الجنود الأعداء بالجرذان . والمصريين بفراعنة أكتوبر : « أنت لم تقطع الأيدى أو الأرجل كما كانوا يفعلون . لم تطعن إسرائيليًّا بسنوكى بندقيتك وقد واتاك العديد

من الفرص حين اقتحمت مع زملائك الشرسين دشم بارليف المحصنة المنيعة ورأيت بني إسرائيل وهم يفرون أمامك وأمامهم كالجرذان المذعورة بل بالفعل جرذان مذعورة . بيان عسكرى رقم ٠٠٣٤ فى تمام الساعة .. وقد بلغ مجموع أفراد العدو الذين استسلموا لقواتنا ليأسهم من استمرار القتال .. وقد تمت العملية بحضور مندوبى هيئة الصليب الأحمر الدولية ومندوبى وكالات الأنباء العالمية .. الجرذ الصهيونى يؤدى التحية العسكرية للقائد المصرى المنتصر .. يرتفع علم مصر .. تنكس نجمة داود .. ينقل الجرحى من اليهود والمصريين إلى المستشفى .. ويواصل وراعنة أكتوبر زحفهم المقدس »

وقد نتج هذا التصوير السطحى لحرب أكتوبر من افتقاد الكاتب الخبرة بالمعارك واعتماده على الأوصاف والمعلومات الصحفية . وهذا بدوره جعل كل صفحات الرواية ترد بطريق السرد المباشر وفى الزمن الماضى . ويحاول الكاتب المزج بين الأزمنة عن طريق تقطيع الأحداث والأزمنة فيخلط بين الأحداث العامة والأزمنة المختلفة . غير أنه يخلط بين الأحداث العامة والخاصة ويتحول تيار الوعى عنده إلى نوع من الفوضى غير المنضبطة : أوكما قال هو نفسه : « أنت تأتى بالأمور مشرقها لمغربها ومن ماضيها لحاضرها ومن حاضرها لمستقبلها .. تأتى بها إلى ذهنك المكدود فتلقى تبعاتها الثقيلة على كواهله المتعبة .. من أمك إلى أبيك ، ومن الحرب إلى المصنع .. قم أخيرا ناديه .. ماذا بقى لك حتى تقدّمه فى معمعة أفكارك المزدحمة ؟» هكذا تختلط الأمور فى ذاكرة بطل الرواية . فتتحول إلى فوضى . تفتقد تيار الوعى الفنى بمعناه المنظم للتداعى وتيار الشعور . وليس بإطلاق العنان لأفكار الكاتب كيفما ترد على ذهنه

أما الأحداث فى الرواية فقد وقعت ويتم إبلاغنا بها بلغة الماضى . فلا توجد أحداث تقع وتنمو وتتطور . كذلك جاءت الشخصيات موصوفة من الخارج .

ومقدمة بأسلوب تقريرى . ومكتملة التكوين . فلا جهد يبذله الكاتب فى رسمها واستكمالها عبر تطور الأحداث . إنما هى تسير وفقا لمفهوم الكاتب عن شخصياته وتنطلق بأفكاره . فتأتى الشخصيات ورقية تفتقر إلى الحيوية وحرية الحركة والتعبير عن أفكارها . ويحشو الكاتب صفحات روايته بكثير من الحكايات الفرعية المطولة التى لا تتصل بحرب أكتوبر من قريب أو بعيد . كأحداث المصنع والنقابة والرشاوى وانتخابات العمال . وعمل البطل فى المصنع وعلاقاته برؤسائه وزملائه وقصص حبه . ومن أمثلة الحشو الذى أصاب الرواية بالترهل . رجوع الكاتب إلى مايسميه « بأرشيفه المقدس » لينقل لنا أبياتا من أشعار صلاح عبد الصبور ونزار قبانى عن حرب أكتوبر . أو مقتطفات من التاريخ الفرعونى والمصرى . أو فقرات مطولة من البيانات العسكرية المصرية والإسرائيلية . وكلها معروفة ومنقولة من الصحف

كما غلب الكاتب العام على الخاص فى سرده المباشر لأحداث هزيمة يونيو ووقائعها المعروفة . من ضربة الطيران إلى الانسحاب .. وربما كانت المحاولة الوحيدة للكاتب فى الخروج من العام إلى الخاص عندما جسّد أزمته العامة فى محنته الخاصة من جراء هزيمة يونيو وعندما استشهد أبوه فى حرب يونيو وأصيبت أمه بمرض عصبى أفقدها النطق واضطره لإيداعها بمستشفى للأمراض النفسية

أما الرواية فتسرد حكاية « عثمان عبد رب النبى » العامل بمصنع للورق . الذى تحول إلى مهندس باجتهاده ومعاونة رئيس المصنع . وكان موضع شك زملائه من العمال بالمصنع . حتى قدر له المشاركة فى حرب أكتوبر . ولدى عودته إلى المصنع نال ثقة زملائه وانتخب رئيسًا لنقابتهم . واكتشف أن الفساد فى المصنع يبدأ من رئيس مجلس الإدارة ومدير المصنع . وعندما حاول تكرار انتصاره فى حرب أكتوبر وتطهير المصنع من الفساد . فُصل من المصنع ومنع من دخوله . غير أنه

يقتحم مكتب رئيس مجلس الإدارة ويهدده بالقتل . ويصمم على المضى فى طريق أكتوبر بتطهير المصنع ولكنه يفشل فى ذلك ويسقط فاقدًا الوعى وينقل إلى المستشفى : وعندما يسترد وعيه يقول بتصميم : « سأقف على قدمى وأبدأ من جديد بنفس الروح . فمن قال إن أرشيفى قد احترق ؟ سأقف على قدمى لأواصل التغيير وطريقى يا « أمال » إليه طويل مرير فعباس حيًّا لم يزل وجرذان الصحراء مازالوا يحلمون » . ويعنى الكاتب بهذا الختام أن ماتحقق فى حرب أكتوبر . يتطلب تحقيقه فى الجبهة الداخلية وقد قال كلمته بأكبر قدْر من المباشرة والاضطراب الفنى

فى رواية «رفقة السلاح والقمر» للروائى المغربى مبارك ربيع تتجلّى الرؤية القومية لحرب أكتوبر . كحرب لكل العرب وشفاء لجروح الهزيمة . وخطوة نحو تحقيق الآمال المختزنة وإنهاء الانتظار والدفاع والتحرك إلى الهجوم والفعل مهما تكن النتائج . فتعبر شخصيات الرواية المنتقاة من مختلف الأقطار العربية عن العرب والوطن العربى ووحدة الهموم العربية والآمال العربية . وقد مكّن المعمار الفنى الحديث الذى شيد به الروائى المغربى مبارك ربيع بناء روايته من التصوير الشمولى لمعارك المواجهة مع العدو الصهيونى . دون التزام ببطل واحد أو شخصية رئيسية أو مكان واحد أو زمن واحد مسلسل متصل . بل تغطى الرواية كلّ الأمكنة والأزمنة والشخصيات متفرقة ومجتمعة . وتنتقل يد الكاتب بقلمه لتصبح أقرب إلى الكاميرا فى يد المخرج السينمائى عندما يقدم مشاهد متعددة منتقاة بمهارة للتعبير عن قومية المعركة وشموليتها . كما أتاحت خبرات الكاتب . كأستاذ لعلم النفس . الجوس فى باطن الشخصيات لاستخراج تجاربها ووقائع المواجهة مع العدو وأعماله العدوانية الوحشية كمبرر قوى وحافز على الحرب . وقد فازت هذه الرواية بجائزة المجمع اللغوى بالقاهرة سنة ١٩٧٥ . كأغلب أعمال مبارك ربيع التى فازت بالجوائز الأولى

فى القصة والرواية .

فمع أن الكاتب يستهل روايته بمشهد توديع الفرقة المغربية أو التجريدة المغربية المسافرة إلى الشام . ومن ثَم يتابع تحركات الضباط والجنود المغاربة فى المرتفعات السورية قبيل حرب أكتوبر وخلالها حتى عودة الفرقة المغربية إلى الرباط . مع هذا كله فقد حرص الكاتب برؤيته القومية العربية على أن تتمثل فى الرواية شخصيات عربية من مختلف الأقطار العربية . وأن تتجسد كل آثار هزيمة يونيو ١٩٦٧ وجراحها الدافعة للثأر والانتقام . والتحرك مع مواقف الدفاع السلبية إلى مواقع الهجوم والفعل . لذا غطّت مشاهد الرواية العشرين كثيرا من العواصم العربية . من الرباط والدار البيضاء إلى دمشق ومرتفعات الجولان مرورًا بالقاهرة وقناة السويس وسيناء والضفة الغربية وعمان وبيروت . وجمعت الرواية بين الرؤية التاريخية والوصف الخارجى لأحداث الصراع العربى الإسرائيلى . من خلال تجسيدها فى شخصياتها المغربية والسورية والمصرية والفلسطينية . وبين استبطان هذه الشخصيات والجوس فى أعماقها وإطلاق تيار الشعور بداخلها ليغترف من ماضيها ويكشف مكنوناتها ومكوناتها الاجتماعية والسياسية . وهمومها الخاصة والعامة التى وفق الروائى فى المزج بينها . وقد حرص الروائى على صدق التعبير عن عنف معارك حرب أكتوبر . وقسوة المواجهة مع عدو قوى . كما أضفى الروائى لمسة جمالية كونية بإشراكه الطبيعة من قمر ونجوم وجبال وتأثيرها فى الأحداث والشخصيات .

فى مشهد توديع القوات المغربية . نتابع صور الجماهير المحتشدة فى الرباط وزغاريدها وهتافاتها « لحماة العروبة حماة الإسلام . حماة الحق . المجد لكم دماؤكم فى الشام فى سيناء مدادكم للوحدة والإيمان . » وفى المشهد الثانى ينتقل الروائى إلى دمشق حيث تستقبل الفرقة المغربية بالعناق ومشاعر أخوّة النضال .

ويجوس الروائى فى باطن شخصياته ليصور تجارب الضابط المجاهد « سلام » السابقة فى حروب الهند الصينية مع الفرنسيين وكيف شارك فى أحراش الفيتنام القاسية بدون مشاعر أو دوافع « بلا حج . ولا دمشق الشام . ولاعز العروبة . بلا زغاريد بلا هتاف التحايا والترحاب ! لم يعد ثَمَّ شيء عدا مغامرة الفتوة والشباب وبراءة المروءة واندفاع التحدى أمام الصعوبات وأمام الفرنسيس بطولات فى الفراغ ضاعت يابنى ياسلام أما فى الشام وفى حرب أكتوبر فالدوافع قومية والمشاعر عربية . وقد وجد سلام ورفاقه من أفراد الفرقة المغربية فى مواقع المرتفعات السورية بين قوات سورية وفلسطينية . وبدلا من الكونياك الفرنسى فى حرب الهند الصينية . شربوا القهوة العربية الأصلية « هنا قهوة من سويداء قلوب محبة مجاهدة » وردّدوا صيحات عربية إسلامية قائلين : « توكلنا على الله » والله أكبر ومن هذه المشاعر القومية تصاعد العزم العربى على الجهاد . ومن امتزاج الشخصيات العربية فى السراديب وبين الصخور الوعرة نما الإحساس العربى المشترك باقتراب الحرب المنتظرة والمتمناة : « قربت تطيب . يابنى ياسلام اسمع وافهم الخطوط هنا تقول لى شيئا وأشياء والبارى أعلم »

وفى مشهد ثالث نتابع تحركات القوات المغربية فى المرتفعات السورية وتمركزها فى مواقع متقدمة من الجبهة الشمالية فى مواجهة العدو ويصور الروائى معارك المواجهة مع كمائن العدو . ولكن موقف الدفاع لا يرضى شخصيات الرواية المحاربة . فى حين تستشعر فى أعماقها اقتراب الهجوم . كما يعبر الروائى بلسان الضابط المغربى سلام : « وعلق سلام على الوضع كله . كأنه يعرب عن فكرة رفاقه جميعا وقد امتدت إلى مستقبل الأيام تستشف خباياه :

كأننا نعد هنا لهجوم بينما يلتزم العدو خطة للدفاع .. لولا الظلام .. ولو أمكن لسلام وبعض رفاقه أن يتطلعوا إلى ملامح بعض رجالهم لرأوا ملامح بو محمد .

من المجموعة الفلسطينية قد انصرف بانتباهه عن أحاديث رفاقه وأرهف السمع إلى كلام سلام « نعد لهجوم ؟ تلك أمنية عظمى . أمل أقصى » ومتى ؟ الدهور تتالى ولابرق أمل فى ذلك يضيء ، ولو أمكن الغوص إلى أعماق هذا الفتى . لبدت أحاديث جراح تتعفن ولا يكاد بلسم الأمل يمسها إلا لماما . أنها جم ؟ متى يهاجم عرب ؟ . » هكذا يصور الروائى تحرّق شخصياتها العربية للحرب والهجوم العربى على العدو . كأمنية عظمى لكل العرب . ويرى الروائى فى كلّ موقع جديد متقدم بعثًا جديدًا : « كل يوم بعث جديد لرفيق السلاح . كل صبح . وصبح اليوم يشهد ميلاد موقع متقدم ثابت للمراقبة والمناوشة تفصله عن خطوط العدو تلال بسيطة يمتد وراءها سهل أجرد تقع فيه خطوط العدو وراءها المرتفعات ووراء الوراء تعود الأرض الحبيبة السليبة لتخضرّ سهولاً وهضاباً .. » .

ويمزج الروائى بين الأزمنة والأمكنة . بين ذكريات الجندى المغربى « ميمون » عن الحرب فى الهند الصينية وتحركات الفدائيين فى عملياتهم داخل الأرض المحتلة . ومواجهة طائرات الاستطلاع الصهيونية على القوات العربية وتصديها لها بالمدافع المضادة . وفى نقلة أخرى نتابع أسرة الضابط المغربى سلام فى الرباط . لدى تلقية رسالة من أبيه . فينساب تيار الوعى ليتذكر الزوجة والأسرة والحياة العائلية الدافئة . ويبدو الوجه الإنسانى الواقعى فى قلق الزوجة حول اشتراك زوجها فى أول تجريدة مغربية للدفاع عن الوطن العربى متطوعًا : « لم تقل له إن أعصابها فى حالة استنفار منذ أعلمها بخبر لم يكن قد تأكد رسميا بعد . يتعلق ببدء تشكيل التجريدة المغربية الأولى للدفاع عن الوطن العربى . ولم تقل له إنها وهى أمامه أمام الكراريس ، لا ترى شيئا وإنما تنتظر أن يعلن لها خبر الرحيل وأنها تحاول أن تتخيل نفسها لحظة سماع النبأ فلا تستطيع وهى بدون شك لن تنتبه إلى أن الكراريس بدأت تفلت منها واحدة بعد أخرى بطريقة آلية بدون تمييز وبدون علامات . كانت

تتبع ذكرياتها القريبة . وتستعيد سلوكها لحظة أعلمها بأنه تطوع فى التجريدة المنتظرة . وأن تطوعه قبل ولم يبق إلا تحديد لحظة الرحيل » .

وفى مشهد آخر ينتقل الروائى إلى أسرة الجندى المغربى « أوباها » بجبال المغرب وينقل أغنيات شعبية للقمر البدر الذى يلعب دورًا هامًّا فى مشاهد الرواية . وخاصّة فى ساعات القتال وخلال الاشتباكات . وفى هذا المشهد يلعب القمر دوراً رئيسيًّا فى أحاديث الشخصيات وحياتها الجبلية مع انسياب ذكريات العمل فى ضوء القمر فى جنى المحاصيل الجبلية بالتعاون بين شباب الجبل بدون أجر ،وكيف قطع هذا التجمع تطوع « أوباها » مع مجموعة من الشباب المغربى فى التجريدة المغربية للدفاع عن الوطن العربى . «فالعقد قد انفرط بتطوع مجموعة من شباب الدواوير فى تجريدة الدفاع عن الوطن العربى . والنجوم عرس فى السماء .. والبدر سلطان . » ويلقى الكاتب أضواء متعددة على شخصية الجندى المغربى « أوباها » وأسرته الجبلية شديدة المراس . وكيف أنهى تجنيده بامتياز . ورفض الزواج متطوعا فى الفرقة المغربية المسافرة إلى بلاد الشام للدفاع عن الوطن العربى .

واستكمالاً للوحة القومية . التى يبدعها الروائى المغربى مبارك ربيع فى روايته « رفقة السلاح والقمر » . ينتقل المشهد إلى حى الوايلى . أحد أحياء مدينة القاهرة القديمة . حيث تعيش أسرة الجندى المصرى « محمد أبو محمد عبد الباقى » المشترك مع المجموعات العربية فى الجبهة الشمالية . لنتعرف إلى والده المريض منذ هزيمة يونيو . وهى يتلقى وسام الثورة الفلسطينية عن ابنيه الشهيدين فى صفوفها فى حين يرفض الرجل الفقير أى معاش أو تعويض عنهما ويتبرع به للثورة الفلسطينية ونعرف أن هذا الأب المريض لم يهتز طوال السنوات الست من مرضه . وهى سنوات الهزيمة . إلاّ مع الهزيمة ومع أخبار معركة الكرامة . فعينه « لا تطرف لآلام المرض

الممض . أو مرارة العلاج . ولا لتقلبات العيش أو محنة الشكل . إنها ترف فحسب للهزيمة وللنصر ! » .

ونقلة أخرى إلى « زقاق النورية » التجارى الصاخب فى بيروت . فى أول أكتوبر تشرين . حيث أقامت الطالبة الفلسطينية سامية أبو عزيز . التى تطوعت للتمريض فى صفوف القوات المسلحة بالجبهة الشمالية . وحيدة مشردة طيلة ست سنوات . هى سنوات الهزيمة . فى حين كان الأخ الأكبر رهين سجون العدو بالأرض المحتلة . وقد دكّت دبابات العدو منزل الأسرة بالأرض وشردت الأسرة خارج الوطن المحتل بعد « الهزيمة القومية » . وانتهت الأسرة فى الحصاد الدموى لأيلول الأسود . فلم يتبق منها سوى سامية . التى تتسلح بالبندقية والشعر . وتنضم للمجموعات العربية المتطوعة للقتال فى الجبهة الشمالية .

وفى دمشق . حيث تاريخ النضال وأمجاد العروبة الأموية وصلاح الدين وساحة الشهداء التى يتجمع فيها الجنود ويتفرقون منها . نطالع صور الفداء والأخوة النضالية فى منزل الجندى السورى « عطفة » فتتعهد الأم بتقديم المزيد من الشهداء وتعبّر عن ثراء الأمة العربية ووفرة رجالها . قائلة « نستطيع أن نقدم المزيد .. وما نحن إلا ذرّة من أمة المائة مليون . » . وتنساب صور تكاتف الشعب العربى فى كل مكان تعزيزًا للرؤية القومية التى يركز عليها الروائى المغربى مبارك ربيع . من صاحب المطعم السورى الذى يرفض قبول النقود ويصمم على استضافة الجنود المغاربة فى مطعمه . وسائق التاكسى المصرى الذى يفخر بمعركة الكرامة ويرفض تقاضى أجره من الفلسطينى أو الجزائرى . إلى المغرب حيث تمتلئ مراكز التطوع بمجموع المتطوعين بأرواحهم ودمائهم . إلى أسرة الضابط السورى هشام فى حىّ أبى رمانة حيث تنضم زوجته لمعسكرات النساء . ويتراسل أبناء الضابط السورى هشام مع أبناء الضابط المغربى سلام .

وبعد أن يكتمل تعرفنا ـ عبر مشاهد الرواية العشرة الأولى ـ على شخصيات الرواية ومواقعها ومكوناتها ودوافعها القومية للانضمام إلى صفوف المقاتلين فى الجبهة الشمالية ـ يعود الروائى إلى الجبهة حيث تتجمع كل الشخصيات العربية ـ التى تابعناها من قبل ورأينا كيف تتحرق شوقًا ليوم الحرب والهجوم على العدو ـ وكيف تحولوا من طاقات حبيسة الى طاقات متفجرة تتلهف على خوض المعركة مهما تكن النتيجة . وتعرض الرواية أساليب التمويه العربية بمنح الجنود إجازات وفسح . وإعراض الجنود العرب عنها لأنهم جاءوا للقتال والنضال وليس للفسح . ونطالع المفهوم العلمى لدى الجندى المغربى « أوباها » . المتمرس بالحرب . عن الحرب فإن « الحرب ليست عملا فرديا ولا هى مأتم دائم .. ولكنها تخطيط عام عليك أن تحتل فيه رقعتك بضبط وانضباط وكفى . » ويأتى هذا الحديث ليطلق المناقشات الفكرية والعسكرية والقومية بين الجنود العرب من مختلف الأقطار العربية حول إمكانيات التحرك العربى ورتابة التدريبات اليومية والانتظار القلق وإمكانيات العرب للفعل الحاسم والإقدام على الحرب .

ويجوس الروائى بخبراته النفسية فى باطن شخصياته ليصور أحاسيس الشخصيات بالهزيمة وبالفرقة العربية والتمزق العربى وليتذكر اعتداءات الطائرات الإسرائيلية على مدارس الأطفال . وتتجمع أحداث العدوان الوحشية فى كل مكان تمت فيه المواجهة مع العدو . ويرى الجندى المصرى « محمد أبو محمد » أن الوضع محصور فى الدفاع قائلاً بأن « أحلامنا لم تتعدّ بعد تصورات للدفاع » لأنه يتحرق شوقًا للهجوم والفعل وليس الدفاع وردّ الفعل . فحتى تحيات الأعياد وسهرات رمضان ليس لها معنى أو طعم لدى الجنود العرب فى وضع الانتظار والترقب . فالعيد الحقيقى هو فى الحرب .

غير أن الكاتب يستغرق فى مناقشات فكرية حول الفعل العربى والعقلانية

والعلمانية والغيبية لا مبرر لها لأنها أضعفت السياق الروائى وجاءت كإسقاط فكرى لآراء الروائى وأفكاره المقحمة على عمله الروائى . بينما هو يتعمق مشاعر الجندى المغربى « أوباها » وقلقه وحزنه الذى تغلب على شخصيته المرحة ،فلم يعد لأفراح شهر رمضان فى دمشق والشام أى معنى فى انتظاره القلق للحرب : « حتى دمشق فى زينتها لمقدم الشهر المعظم بدت بلا هدف ولا معنى ، حتى الإشارات المقتضبة من ثلة الجنود إلى الأقارب والمعارف تأتى بلا طعم ولا وزن » . هكذا يظل « أوباها » يفكر بينما يقوم بالدوريات الروتينية مع رفاقه السوريين والفلسطينيين والمصريين فى المرتفعات السورية . وتتعمق الرواية فى مشاعره ونفسيته لتصور تحرّقه لقتال العدو ، بينما يعرض أحد قادة الكتيبة المغربية تاريخه العسكرى والشخصي ، وتستغرق بالتفصيل عملية عسكرية ليلية مع كمائن العدو ، لازم خلالها الجندى المغربى « أوباها » القائد السورى « أبو سعد » وغطى على انسحاب المجموعة بعد مواجهة ناجحة مع داورية للعدو قتل فيها ثمانية من أفراده .

وتعبّر الرواية عن مشاعر الجنود العرب بين يأس البعض من قيام الحرب وإحساس البعض الآخر باقترابها الوشيك ، بعد وقف الإجازات والتصاريح ، وتصف بالتفصيل الاستعدادات العسكرية الجديدة والصواريخ وأعمال حفر السراديب فى اتجاه خطوط العدو . ولكن الدوريات الروتينية تستمر على حالها ، فيود « أبو محمد » أن يصرخ فى العرب جميعا : اخرجوا من الدفاع إلى الهجوم ، وهذا هو مغزى حرب أكتوبر وأهميتها ، الخروج من الدفاع إلى الهجوم : « ويود ضميرك ياأبومحمد أن يصيح فى وجه كل مسؤول عربى : أخرجوا عن موقف الدفاع وغيروا مألوف خط تاريخكم الحديث .. » فالكل بركان يريد أن ينفجر ولم يعد الكلام يجدى بعد تكراره . ومع ذلك القلق فى ضمير الجنود يصدر أمر بالسهر والمسامرة خارج الخيام والمواقع للخداع والتمويه فى ضوء القمر البدر . وبين الترقب

والشك والانتظار يصدر أخيرا البلاغ الأول ومعه تنفذ أوامر التحرك . ويصف الروائى تلقّى الجنود العرب للبلاغ وأوامر القتال وصفًا جميلا معبّرا : « يا لله كيف يفجأ حدوث الأمل المتوقع . فيتقبله المنتظر الملهوف بجمود كالأرض الموات عطشى لا يستجيب أديمها لأول الغيث على طول انتظار . كالصادى لا يتحمس فى ذاته متعة الارتواء للوهلة الأولى . أهو التشكك ؟ أهى تخمة الانتظار المتشائم الطويل ؟ مهما يكن فالحقيقة فى عزّ أزهار الشمس وقد مضت أكثر من ساعة على البلاغ الأول . ودوى الرعد القاصف يتردد فى أطراف الجبهات الأخرى الأقرب . يتناهى قويًّا أو واهنا . والأمر الصارم ينبعث الآن من شغاف الأعماق تيار تحفز متجدد من ذاته . » ويجمع الروائى فى وصفه للحظة الانطلاق بين تصوير قوة الاندفاع المتجمعة من الصبر والانتظار وانطلاق القوات المصرية لعبور قناة السويس وانطلاق الصواريخ ضد الطيران الإسرائيلى : « وحين تغشى إزهار السماء أول غمامة هادرة من طائرات العدو وجهته عز الشام دمشق . تترى البلاغات عن العبور الأسطورى العظيم المظفر فى السويس .. ومن الخطوط الأمامية للجبهة الثانية الملجمة الجرأة وراء مواقعها المتقدمة تنبعث شهب ساحرة تتلقى طائرات العدو فى عناق واحتراق . » .

وتتسع صفحات الرواية لوصف تفصيلى لغارات الطيران الإسرائيلى وتصدّى الصواريخ وتتسع صفحات الرواية لوصف تفصيلى لغارات الطيران الإسرائيلى وتصدّى الصواريخ العربية لإسقاطها . والمواجهة فى أحد المواقع الأمامية العربية لعمليات إنزال المظلّيين الإسرائيليين فى حرب حقيقية ومعارك ضارية بين قوى متكافئة . ووصف تفصيلى لقوة الهجوم الإسرائيلى المضاد : « قرابة ثلاثة أيام تمضى والمواقع التى أنشئت لمجرد أن تكون عرقلة لكسب الوقت . ثابتةً صامدة فى معارك ضارية متسعة وبكل أنواع السلاح . ولئن اخترق العدو أخيرا مجالاتها من بعض

نقاط التماس فالعرس الكبير ينتظره ، وقد دخلت معه الخطوط الأمامية الرئيسية للجبهة فى الرد . وليكن لك خيال رحب ومجنح بلا حدود لتتصور ما يملك العدو من أسراب الطائرات وأحمال متفجرة ، وشهب من السماء للأرض ، ولن تحتاج لكبير جهد لتدرك استماتة أبنائك فى الموقع الأول والمواقع الأخرى ؛ لأنك عشت الاستماتة وخبرتها . يكفى أن تعلم أن الأسراب المغيرة التى تحجب أشعة الشمس ، ماكانت تستطيع أن تقترب لتقصف حيث تريد .. ولكن الخسائر مع ذلك كانت جسيمة .. والعدوّ لا يكلّ من محاولات الإنزال بالمظلات ليدعم قواته المتسربة عبر الخطوط الأرضية ، لكنه خسر الكثير ..

وتصور الرواية أيضا اجتماعات القادة فى السراديب الأرضية . وانتظار أوامر التحرك بالهجوم فى ذلك الموقع الأمامى الذى تتمركز فيه الفرقة المغربية . حتى جاء أمر القيادة بالهجوم . وتصف الرواية فرح قادة الموقع وجنوده بأمر الهجوم وتحرك القوات العربية كعرس فى ضوء البدر : « استوى القمر سلطانًا مهيبًا فى عرس جليل خالد تلتهب فيه الأرض والسماء ، وتتعانق قرابين الشهداء والأعداء .. عرس تَسلّم فيه رئيف محيي الدين قيادة الموقع يساعده عطفة محمد خليل . بينما تسللت فى جلال الليل المشع دبابات الموقع الاثنتا عشرة فى ثلاث مجموعات بقيادات ثلاث متجهةً نحو قاعدة المثلث حيث طليعة خطوط العدو ومواقعة المتقدمه تحت غطاء كثيف من قصف مدفعى بعيد المدى من قلب خطوط الجبهة .. » فالروائى يصوّر حربًا حقيقية فيها الدماء والنيران والخصم القوى . هكذا كانت حرب أكتوبر حربًا عنيفة وليست نزهة أو تمثيلية كما حاولت بعض الحكايات والروايات السطحية تصويرها . حرب حقيقية دفع شهداؤنا دماءهم ثمنًا لها . انظر كيف يصور الروائى تحرير أول موقع عربى ، بعد القصف المدفعى المركز : « انطلقت الدبابات مرّة واحدة بأقصى سرعتها فاتحة مدافعها الثقيلة والخفيفة .. ثم مرسلة ألسنة اللهيب

أمامها على خنادق العدو .. مرّكل شىء فى لحظة وجود مركّزة خالية من تعاقب الزمان . تعثّرت دبابتان بإصابات معادية مباشرة . وتوقّف الباقى فوق خنادق العدو مباشرة . فقفز الجنود إلى الأرض يرمون المتفجرات ويشتبكون مع العدوّ بالجسد والنار ، بينما فوهات مدافع الدبابات المهاجمة ظلّت تطلق فى كل اتجاه . رابضة بهيا كلها الضخمة الثقيلة فوق أول شبْر محرر من أرض لم تطأها أقدامُ حُرٍّ منذ سنوات . وتضيع أول لحظة من لحظات التحرير « واستراح رأس الشهيد أبو على على تربة أول شبْر محرّر وعيناه مفتحتان على صفاء الفضاء الرحب . ومرّت يدان رفيقتان على عينيه فأسبلتهما » .

ويبدع الروائى فى تصوير لحظة الاستشهاد ، واستبسال أبطالنا فى الحرب برغم الإصابات : مثلنا لا يجوز أن يُقتل برصاصةواحدة أو يموت موتةً واحدة .. وظلّ صوت الركض يلازمه ويضرب فى أعماق سمعه .. وثقل كتلة رصاصية وقشعريرة جليدية تسرى فى الكيان وطنين .. طنين حاد فى أعماق الدماغ والغشاوة المتكاثفة . أهى مُرّةٌ إلى هذا الحدّ لحظة الشهادة ؟ لكنها لا تلبث أن تتغيّر .. شعور بالثقل والأوزان يضيع ، والطنين الحاد مجرّد خد بعيد يصبح لذيذًا كأنامل وليدٍ لطاف تداعب خد نائم حالم .

فالمعركة حرب حقيقية فقدت فيها المجموعة نصف أفرادها وبعض دباباتها من جراء هجوم العدو المضاد ، وعندما يصيب الجندى المغربى « عيسى » طائرةً إسرائيلية بمدفعه الرشاش يتذكر معارك المقاومة المغربية مع قوات الاستعمار الفرنسى فى الدار البيضاء ، فالعدوّ واحد والوطن واحد ، ومع استشهاد بعض أفراد المجموعة تأتى أخبار الهجوم العربى فى الجبهات الأخرى فتنشر الفرح . ونطالع أخبار استشهاد الضابط المغربى سلام من خلال رسائل رفاقه إلى زوجته وأُبيه وابنيه ، وهى رسائل فيها قوّة التصميم والاعتزاز ببطولات الشهيد فى أرض الشام العربية .

ويتابع الروائى مبارك ربيع أثر حرب أكتوبر ، كعمل وفعل وهجوم عنيف ، فى شخصياتها المتبقية بعد المعركة ، قائلاً : إنها طهّرت جرح الهزيمة وأنهت الانتظار . فلقد انحسرت تلك النار مؤقتا بعد أن طهّرت الجرح وذهبت بكل التقرحات ، وبقى الأثر وحده ، بقى الندب الذى يحمله الرجال كتذكار لكى لا ينسوا أبدًا . وهذا هو المغزى العميق لرواية مبارك ربيع . « رفقة السلاح والقمر » . فى فهمها وتقديرها لأهمية حرب أكتوبر . كأنموذج للفعل العربى وقدرات الإنسان العربى . مهما اكتنفها من محدودية وقَصرَ . وما صاحبها وتبعها من سياسات واختلافات يجب ألاّ تطمس الحرب . لتبقى حرب أكتوبر كأول عمل عسكرى عربى مشترك كشف عن إمكانيات المقاتل العربى والإنسان العربى والأمة العربية ؛ لذا يجب أن تظل قيمتها باقية كأنموذج للمقدرة العربية . وألاّ تصبح ورقةً هشة فى مهب الخلافات العابرة والمؤقتة . فالكلّ إلى زوال . ولكن الأمة وحدها باقية . وهذه الحرب تسجل صفحات مشرقة فى تاريخنا ونضالنا دفع شهداؤنا دماءهم فى سبيلها . ومن ثَم يجب على أدبنا العربى أن يبرزها ويثبتها لكل الأجيال العربية .

أمّا التجريدة المغربية فتعود البقية الباقية من أبطالها ليتم استبدالها بدماء جديدة تتدفق إلى الجبهة ، فى حين يعود المحاربون إلى المغرب بشخصيات جديدة قويّة معافة من جروح الهزيمة . ويجرى استعراض الفرقة المغربية فى الرباط ، وتصف الرواية مشاعر المغاربة فى أثناء الاستعراض ، ومشاعر الأب والزوجة والطفلين نحو الشهيد المغربى سلام ، كما تصف اشتراك قوة سورية رمزية فى العرض مع التجريدة المغربية تأكيدًا للأخوة العربية ورابطة الدم والمصير .

وتختتم الرواية بمقطع من قصيد « العبور الكبير » لتوفيق زياد ، شاعر الأرض المحتلة ، تعبّر عن مغزى حرب أكتوبر التى غسلت جرح الهزيمة :

طويلاً كان الليل . طويلا كان
وثقيلاً كان العار . ثقيلا كان
وعميقًا كان الجرح . عميقا كان
أما الآن . الآن . الآن
فالفرح المنتقى دما
ينبت فى كل كيان . كيان
بردا وسلاما .
ينبت
وردا
وشقائق نعمان .

واستأثرت معارك تحرير مرصد جبل الشيخ باهتمام الروائى السورى حنامينه . فنالت عملين أدبيين من أعماله القصصية والروائية . العمل الأول « الجبل » قصة قصيرة مطولة (٩٠ صفحة قطع متوسط) . والعمل الثانى « المرصد » رواية طويلة (٣٦٨ صفحة قطع متوسط) . وهذا يدلنا على مدى اهتمام الروائى السورى بمعارك المرصد . وهو اهتمام فى محله ؛ لأن المرصد قلعة حصينة ذات موقع استراتيجى فريد يطل على سوريا ولبنان والأردن وفلسطين . وقد أقام الإسرائيليون المرصد منذ استيلائهم على قمة جبل الشيخ فى حرب يونيو ١٩٦٧ . حصنت أجهزته الإلكترونية للتجسس والرؤية كما يذكر هرتزوج فى كتابه عن « حرب يوم الغفران » . وجعلت منه حصنًا منيعًا من الداخل والخارج يجعل نجاح أى هجوم عربى عليه فى حكم المعجزات . وقد استمرت معارك المرصد طوال حرب أكتوبر منذ بدئها فى السادس من أكتوبر حتى وقف إطلاق النار فى الثانى والعشرين منه . وتمثلت فيها كل معالم حرب أكتوبر . من تغيير شخصية المقاتل العربى واستيعاب درس الهزيمة والعلمية

فى التخطيط والتدريب ودراسة العدو . إلى الجرأة فى الهجوم والاقتحام واتخاذ زمام المبادرة والفعل . والصمود فى مواجهة الهجمات المضادة والثبات فى المواقع والتكافؤ فى القتال والمواجهاة ؛ لذا وجد فيها الروائى السورى بؤرة تتجمع فيها معالم حرب أكتوبر . فصنع منها عمليه الأدبيين فى القصة القصيرة والرواية

ويرجع الفارق الكبير فى الحجم وفى الفن بين هذين العملين الأدبيين إلى أن حنامينه وسّع من آفاق رؤيته لمعارك المرصد بعد كتابته عنها فى قصته « الجبل » . فبينما ركّز حنّا فى قصته الأولى « الجبل » على معركة المرصد وحدها واكتفى بتصوير الهجوم العربى والهجوم الإسرائيلى المضاد كما يتطلب فى القصة القصيرة من تركيز وإيجاز . نجده فى روايته الثانية « المرصد » يفتح مجال الرؤية الروائية على أوسع مداه . مستغلاً خصائص الفن الروائى الشمولية . لتتحول الرواية إلى لوحة بانورامية شاملة لكل المواقع فى الجبهة الشمالية وكل القوات السورية المقاتلة فى الجبل والبحر والجو . من القوات الخاصة إلى المظلّيين . ومن المشاة حملة الصواريخ وقادة الدبابات إلى الطيّارين . وقوات الدفاع الجوى ورجال البحرية . فى لوحة شاملة تتمثل فيها حرب أكتوبر وتصوّر مدى عنفها ومدى البذل والاستبسال والبطولات العربية المتحققة فيها .

فيجمع الروائى حنّامينه فى تصويره لحرب أكتوبر . بين التركيز على دقائق معركة المرصد . وبين التصوير البانورامى الشامل لحرب أكتوبر فى الجبهة الشمالية . ويتنقل بمشاهد الرواية بين مختلف المواقع والقوات والشخصيات . كما يتابع اتصالات القادة والجنود وتحركاتهم فى عملية المرصد . ويغوص فى أعماق كلّ منهم فى لحظات الترصّد والتحرّك والمواجهة والقتال والاقتحام ليضىء ماضيهم الإنسانى كبشر لهم أسرهم ومحبّوهم وطموحاتهم وآمالهم . ويمزج هذا كلّه بأمنيات التحرير ومسْح عار الهزيمة والأشواق لوطن عربى جديد . حرّ وموحّد . « فمنذ انطلقوا إلى

المعركة ودّعوا الماضى . صاروا أبناء الحاضر . صار القتال الذى طالما تمنوه حقيقة ماثلة . والمعبَر الفاصل بين حالتين نفسيتين سيتم تجاوزه سيولدون ثانية . وستكون ولادتهم شيئًا كبيرًا فى حياتهم ستكون الأقوى . والأجدر بالعيش . والأكثر توافقًا مع طبيعة التوق الذى فى الصدور . وهذه هى أهمية حرب أكتوبر التى ركزت عليها الروايات العربية المعبرة عنها . الخلاص من عجز الهزيمة وذلّ الماضى وإثبات القدرات العربية على الحرب والفعل والقتال . وأنها حرب حقيقية برغم كل ما اكتنفها من مصاعب وانكسارات وتراجعات .

غير أن حرص حنامينه على كتابة عمل روائى كبير عن حرب أكتوبر يتجاوز به قصته القصيرة « الجبل » . دفعه إلى حشو روايته بالكثير من الاستطرادات والأحاديث والشروح السياسية والعسكرية والجغرافية . ممّا جعل روايته أقرب إلى الكتب الحربية الدعائية . بكلّ مافيها من خطابية حماسية وشروح تعليمية ومناقشات نظرية ومقاربات فكرية . وأحاديث مكررة مباشرة عن النازية والصهيونية وهزيمة يونيو وحروب الأنظمة العربية السابقة على حرب أكتوبر . وعن الإيمان بالهدف لتحقيق النصر . وقيمة الإنسان قبل السلاح . المكتوبة بأسلوب المقالات الصحفية التقريرى المباشر البعيد عن لغة الفن الروائى وفنية البناء الروائى .

وضمّن الروائى صفحات روايته مفهومه عن أدب الحرب واعترف بأنه قد يفتقر للأسلوب الأدبى والشكل العصرى . ولكنه ضرورى وحيوى . بقوله : « أدب كهذا يكون أدباً حيّا . مؤثرا . يصف الأشياء وصف عيان . وينقل أحاسيس مُعاشةً . فيها كلّ صدق المعاناة الرهيبة . وكل توْق المرء إلى الحياة الهانئة السعيدة . والخالية من الدماء . من الشر والدموع . » وكأنه بكلماته هذه يصف روايته المباشرة « المرصد » التى تأسست على وصف تفصيلى لمعارك الجولان فى المرصد وسائر قطاعات الجبهة الشمالية . وعبّرت عن مشاعر المقاتلين والمدنيين نحو

حرب أكتوبر . ورؤيتهم لها كخلاص من عار الهزيمة وذلّ الاحتلال . وتوْقهم للخروج منه إلى وطن عربي جديد وإنسان عربي جديد حرّ معافى من مرارات الهزيمة وإحباطاتها

وصور الروائى تفصيليًا معارك تحرير مرصد جبل الشيخ . كأنموذج لمعارك حرب أكتوبر . وهى معارك بالغة العنف والأهمية فى الهجوم العربى والهجوم الإسرائيلى المضاد وهذا هو العمل الذى تنفرد به رواية « المرصد » بين روايات حرب أكتوبر . فى عنايتها بأدق تفاصيل معارك المرصد . إذ ينم عن دراسة متأنية قام بها الروائى حنامينه لعمليات المعارك . منذ كانت مشروعاً على الورق حتى تحولت إلى تدريبات وخطط عملية إلى أن بلغت مراحل التنفيذ . فهى رواية تسجيلية أمينة فى تسجيلها . دقيقة فى متابعتها لكل التفاصيل من الخطط إلى البشر والطبيعة . ومن السياسة إلى الشئون الاجتماعية ولم يشب هذا العمل الروائى سوى الاستطراد والتكرار . كالحديث المعاد عن جروح هزيمة يونيو . وعن هزائم العرب السابقة . وعن توق الجميع للثأر وتأكيد الذات والتبرؤ من الهزيمة وغسل عارها . إذ تكرر هذا الحديث كثيرًا فى صفحات الرواية مع كل تحرك للرجال . هذا المفهوم لحرب أكتوبر كمطهّر من رجس الهزيمة . وكمدخل جديد لحياة كريمه وتحقيق للرجولة والبطولة والقدرة على الفعل . نطالعه بأكثر من صيغة وأحياناً بنفس العبارة .

لقد قال الروائى الكبير « حنامينه » كلمته فى حرب أكتوبر . وهى كلمة أمينة فى التسجيل . عميقة المغزى . ثرية بالدلالات . متسمة بالوعى والفهم العميقين . ولكنه قالها بأكثر الكلمات مباشرة وخطابية واستطرد فيها استطرادًا حماسيا دعائيا . مما أضعف من فنية عمله الروائى . وفتح ثغرة فى خطه الروائى الصاعد . الذى أثرى الرواية العربية بعدد من الأعمال الروائية البارزة قدّمت إضافات جديدة للفن الروائى العربى .

وكى يحقق الروائى هدفه الذى يرمى إليه بروايته وتغطية أحداث حرب أكتوبر على كافة الجبهات العسكرية والمدنية وانعكاسها على أوجه الحياة الإنسانية . أقام الروائى معماره الفنى على أساس من المشاهد المتعددة (٢٧ مشهداً) المتنقلة بين مختلف الأمكنة والأزمنة والشخصيات . واستخدم خلالها عدة أساليب فنية من السرد والوصف الخارجى إلى تيار الوعى والتداعى والمونولوج الداخلى . غير أن السرد التقريرى والوصف الخارجى تغلبا على البناء الروائى وغمرا صفحات الرواية بالكثير من المعلومات الجغرافية والتاريخية والعسكرية ولعل أهمها تلك المتعلقة بتاريخ جبل الشيخ العربى وجغرافيته وتضاريسه والمعلومات العسكرية الخاصة ببناء المرصد الرهيب واستحكاماته الحصينة وسراديبه ودهاليزه السرية وأجهزته وآلاته الإلكترونية المعقدة . وأهميته الاستراتيجية

فمع وصف الطبيعة الجبلية الخلابة لجبل الشيخ . المقام عليه المرصد . نتابع من البداية تشكيل الوحدات الخاصة بعملية المرصد . وكيف انتقاهم قائدهم « المقدم صالح » ليثأروا للماضى . كجنود مهمات خاصة . فدرس حياتهم وتاريخهم واختبر شجاعتهم وقدراتهم على المغامرة والمبادرة . ودرّب رجاله الشرسين على مهمة تحرير المرصد التى وضع لها خطة جريئة غير تقليدية ؛ ليثبتوا للعالم أنهم رجال وأهل قتال وأن هزيمة يونيو لا تعبّر عنهم . فتم انتقاء الرجال الأشداء وتكوين الوحدة تكوينا خاصا بقيادة « النقيب م » . ووضع خطة علمية واقعية تنبع من طبيعة جبل الشيخ ومرتفعاته وصخوره الوعرة وأشجاره الكثيفة . ويشبّه الروائى العلاقة بين الوحدة وجبل الشيخ بعلاقة حب وترقّب طوال خمس سنوات من التدريب على الوصول إلى الهدف . ونطالع مناقشات الخطة وتدريباتها وتوق الجميع للحرب الحقيقية . كما وصفها القائد المقدم صالح . وقال إنها ستقع حتمًا . وإنها « المطهّر من عذابات ورجس حزيران » ؛ لأن العرب لم يحاربوا من قبل : « ثلاث حروب بلا

قتال ولم ينازل الجندى العربى عدوًّا »

ويصف الروائى المرصد كقلعة حصينة . فنرى كيفية جمع المعلومات وتنسيقها وربطها فى خيط واحد حول المرصد الحصين وأفراده وتجهيزاته ووضع خطة اقتحامه على أساس تصورات علمية واستغلال عنصر المفاجأة واستهتار العدو واستهانته بالقوات العربية بناء على هزيمة يونيو . ونتابع الحسابات الدقيقة . والسرية فى العمل . والتمويه . ودراسة تضاريس الطريق الصاعد . نوعية الصخور والأشجار . جغرافية الجبل . احتمالات الفشل والنجاح . والتدريبات العنيفة على الاقتحام دون تراجع مهما كانت الخسائر . حتى إذا جاءت لحظة الحرب الموعودة والمنتظرة يعطى القائد إشارة البدء بتنفيذ الخطة لدى مشاهدتهم أسراب طائرات الميج تقصف المرصد . يتحرك المظليّون بالحوّامات (الهليوكبتر) . أما مجموعات الكمائن فإنها سبقت صاعدة بهدوء الجبل الشاهق (٦٦٠٠ قدم) عبر التلال مموهة بين الأشجار الكثيفة . وتصف الرواية تقليد الجنود لأصوات الطيور فى تبادل الإشارات بينهم إمعانا فى التمويه : « فقد أصدر قائد المجموعة أمره بعدم الكلام او التدخين او اطلاق النار لأى سبب » . هكذا يصف الكاتب المهمة المحددة لمجموعة المرصد . ويتابع تحركات أفرادها خطوة بخطوة . ويتحدث عنهم فردا فردا . معدّدا مكوناتهم ومزاياهم وخبراتهم الجبلية والعسكرية والإنسانية .

وفى الساعة الثانية ظهرا ظهرت طائرات الميج السورية فى السماء إيذانا ببدء الحرب . ويصف الروائى حرب أكتوبر بأقوى الألفاظ تعبيرًا عن الفرحة بها وضرورتها وتحققها أخيرًا : « وقد انطوت عليه هتفة الجندى : إذن هى الحرب . وتبدى فرحه فى عيون كرهت طول الإغضاء على ذلّ حزيران . وقال النقيب « م » كلمات عن الواجب والتضحية والفداء . فعاد الجندى حسن يهتف من حماسة وفرح : مرحى . وقال آخر : يارب . من كان يصدق ؟ . وزار القائد جنوده

بنظرات فيها حب وإكبار وقال فى نفسه : ياللرجال كأنهم مدعوون إلى حفل وهنا تبدأ معركة المرصد . بعد أن تكون الكمائن قد أعدت فى صمت لعرقلة أية إمدادات أو هجمات مضادّة . وتمّ التحرك صوب المرصد .

وتقدم الرواية وصفًا تفصيليًّا لعملية الهجوم على المرصد . يشكل لوحة روائية لقوة النيران المهاجمة والمعاونة . من المدفعية الثقيلة إلى طائرات الميج إلى طائرات الهليوكبتر تسقط الرجال العرب على قمّة المرصد . بينما تنشب المعارك بالسلاح الأبيض مع الإسرائيليين . الذين هرعوا إلى أعلى المرصد . فى حين تهبط مجموعة الاقتحام على تل مجاور متقدمة نحو بوابة المرصد الحديدية المصفحة ويصف الروائى هذه العملية وصفًا خارجيا . ومن خلال استبطان مشاعر الضباط والجنود . ويعكس هذا كلّه بسالة الرجال وشراستهم وتصميمهم على إنجاز مهمتهم المستحيلة فى اقتحام تلك القلعة الحصينة وتحريرها ورفع العلم العربى عليها . فعندما يصاب قائد المجموعة يطلب من زميله « النقيب م » تولّى القيادة . ويواصل الجميع التصدّى لنيران العدو . ويشترك ثلاثة من الضباط والجنود فى التصدى لرشّاشات العدو ومحاولة إسكاتها . النقيب « م » والملازم « ن » والجندى » « عبد الإله » وهى أسماء حقيقية قامت بأدوار حقيقية فى معركة المرصد :

« انحنى الثلاثة . وبأقصى ما يستطيع الجسم المقوس أن يبدو . شرعوا يركضون ويرمون معا . يجهّزون القنابل ويضغطون على الأزندة وهم فى وضع الانحناء والزحف . فإذا انتصبوا ألقوا قنابلهم على السور وشدت أصابعهم على الأزندة فى غضب عاصف والرصاص يئز من أمامهم فيرتطم بالأسمنت ويرتد . حتى إذا سنحت لهم الفرصة عادوا إلى الانحناء من جديد والاندفاع إلى أمام كرّة أخرى . ولقد فعلوا ذلك عدة مرات . . فعلوه تحت تغطية نارية شديدة من الخلف . ركّزتها على السور عناصر مجموعة الاقتحام . وبذلك تسنّى لهم أن يدخلوا المنطقة

الآمنة . الملاصقة للسور تماما . حيث تقف مصفّحة عليها رشّاش ٥٠٠ . يرمى بشكل عشوائى لهول المفاجأة التى أخذت الذين داخل المصفحة . كان إسكات هذا الرشاش يساوى نصف العملية » .

ويقفز الجندى « عبد الإله » على المصفحة الإسرائيلية ويفاجئهم بنيران رشاشه . وإضافة إلى متابعة الروائى لعمليات الكمائن العربية فى التصدى لهجمات العدو المضادة . يصف الروائى هضبة الجولان المشتعلة كلها بالنيران من خلال رؤية قائد الكمين السورى من موقفه العلوى يرقب إمدادات العدو لقوة المرصد ويصمم على إيقافها بأى تضحية . ويتابع المعارك العنيفة بمختلف الأسلحة فى هضبة الجولان ، تحتشد فيها الطائرات والدبابات والصواريخ والمدافع وتشتبك فى مشهد بالغ العنف لحرب حقيقية لم تشهدها أرضنا العربية من قبل . وتمثل مدى عنف المواجهة مع العدو الإسرائيلى فى حرب أكتوبر على الجبهتين الشمالية والجنوبية . كما عكستها صفحات روايات أكتوبر العربية .

ويتابع الروائى وصف اشتباكات الكمائن العربية مع إمدادات الدبابات الإسرائيلية . ومعارك الصواريخ والطيران والقنابل والألغام ، معارك بالغة العنف والشراسة . لتوقّف كل عون جديد لقوة المرصد الإسرائيلية ومحاولة استرجاعه . وكيف تم الهجوم العربى على عدة اتجاهات : إسقاط المظلّيين من أعلى الطائرات الهليوكبتر على قمة المرصد ، وهجوم من أسفل باتجاه البوابة الحديدية للمرصد ، وكمائن جبلية مموّهة بين الأشجار والصخور الوعرة لصد إمدادات الدبابات والمصفحات الإسرائيلية . كما أن تلاحم الجانبين منع الطائرات الإسرائيلية من التدخل ، حتى تمكن الرجال الثلاثة من اقتحام فتحة المرصد وفتح الثغرة فى دفاع القوة الإسرائيلية بداخل المرصد .

ويصف الروائى عملية إسقاط العلم الإسرائيلى التى تابعها النقيب « م » بعد

استشهاد الجندى « حسن » فى سبيلها . وكيف مزقه سكين هاتفًا : « الله أكبر . يحيا الوطن » ومن ثم يستخلص حنامينه النتائج من هذه العملية . ويتجاوزها إلى دلالة حرب أكتوبر قائلاً . بلسان الملازم « ن » : « إن رؤية علم العدو ينزل عن السارية . عن سارية هذا المرصد الحصين . قد ملأتنى فرحًا وحماسة . ذلك يعنى أن المعركة توّجت بالنصر . ويعنى أننا حاربنا . فى هذه المعركة على الأقل . وانتصرنا . وأن فى وسع رفاقنا على الجبهات الأخرى . أن يقاتلوا وينتصروا أيضاً . وهذا معناه أن عدوّنا ليس مخيفًا إلى الدرجة الأسطورية التى صنعتها الدعاية وحرب حزيران »

هكذا يضع الروائى يده على مفتاح فهم حرب أكتوبر كدليل عملى حاسم رسمه رجالنا وشهداؤنا بدمائهم وعرقهم وعقولهم . يؤكد قدراتنا على القتال وتحدى العدو وإسقاط كل الأساطير والأوهام حول قدراته الخرافية . أو كما قال النقيب « م » : « لقد حاربنا . وهذا أهم إنجاز صنعناه إن الحرب ليست مخيفة إذن . والعدو يمكن أن يدحر أيضًا . نعم لقد حاربنا حربا حقيقية وهذا هو المهم . هذه الحرب الحقيقية لم يغفل الروائى لحظة عن متابعتها فى مشهدها العام وفى تفاصيلها الدقيقة . فتدفقت صورها الواقعية فى هضبة الجولان بكل التقدمات والتراجعات والمكاسب والخسائر . فالمهم تصوير حدث الحرب الفعلى والحقيقى . وإمكانيات العرب فى القتال والتقدم ومقاومة الجندى الإسرائيلى الذى « لم يعد شبحا لا يقاوم » فقد خضنا الحرب فعلاً هذه المرة وهذا هو المهم . وتردد شخصيات الرواية : إن هذه هى الحرب الحقيقية وقال النقيب « م » : « إن صواريخنا تفتك بطائرات العدو . البلاغات الحربية مطمئنة لقد اقتحمنا الخندق الذى ظن العدو أنه يشكل حدًا آمنا بالنسبة له هكذا نكون قد حطمنا ذريعة الحدود الآمنة . ليس ثمّة حدود آمنة لعدوّنا » .

ومع أن معارك المرصد تشكل المحور الرئيسى الذى تتمحور من حوله مشاهد الرواية ، إلا أن الروائى يغطى بمشاهد الرواية الأخرى حياة أسر المقاتلين ، وتطوع زوجاتهم للخدمات الطبية والاجتماعية فى الجبهة المدنية . ففى مشهد يجوس خلاله الروائى فى حياة أسرة النقيب « م » ماضيًا وحاضرا ، مع زوجته وابنيه . يرجع إلى الماضى لتصوير أثر هزيمة يونيو على النقيب وأسرته . ومن ثم يمضى فى استعراضه التقريرى لكل أحداث يونيو من استقالة عبد الناصر إلى الحرب النفسية التى وجهت إلينا من الداخل والخارج . ونشهد من خلال عرضه لأثر حرب أكتوبر فى الجبهة المدنية تأكد الجميع من أن الحرب حقيقية وأن المواجهة العنيفة حقيقية . إذ يتابعها الجميع فى اشتباكات الطيران والصواريخ والمدفعية وإسقاط الطائرات الإسرائيلية المغيرة وأسر الطيارين . ويردد الجميع أنها حرب حقيقية . وهذا غير سلوك الجميع وجعلهم يتطوعون للعمل فى المخابرات والمصانع والمزارع لزيادة إمدادات التموين وتقبل كل تضحيات الحرب . وتطوعت النساء فى الإمدادات الطبية والمستشفيات . فتنشر الحرب الفرح فى الجبهة الداخلية . ويقول المدير لرباب زوجة النقيب « م » مبتسمًا لأول مرة : « قولى له أشياء مفرحة عن دمشق ، يجب أن يعرف أنك بخير ، وأن الناس جميعا بخير . فالحرب ، هذه المرة . جلبت لنا السرور . . أبردت لنا صدورنا . جعلتنا نتذكر أيامًا سوداء مضت . . أيامنا الآن بيضاء تشرين (أكتوبر) – جعلتها بيضاء . تشرين جلب لنا النصر والفخر . لقد انتقمنا . الله ساعدنا على الأخذ بالثأر . . » غير أن الروائى يعمد إلى تحرير صفحات طويلة بالمناقشات النظرية عن التخلف الحضارى العربى والتقدم الإسرائيلى . وضرورة تلازم التحرير والتحضر والتصنيع . وهى مناقشات تشكل أورامًا وحشوًا وترهلاً فى البناء الروائى . وقد احتشدت الرواية بالكثير من المناقشات النظرية المطولة التى لا تنمى حدثا ولا تطور شخصية .

وتغطى مشاهد الرواية الأخرى معارك البحرية السورية فى اللاذقية . وهى معارك بحرية ضارية دفع فيها الجانبان بكلّ قواهم البحرية . ليؤكد بلسان جندى بحار فى رسالة إلى والده ، « إن الحرب معاناة فى معركة حقيقية » . وإننا نخوض قتالاً شرسا ضدّ عدّو خسر معركة فى الصباح ، ويريد أن يستردها فى المساء ،كان وحشا جريحا يندفع مستميتا ، قصده أن يدمر زوارقنا ويقتحم خط دفاعنا ليبلغ الميناء ويقصفها . كما تغطى المشاهد التالية معارك الدبابات العنيفة لاجتياز الخندق الذى حفره العدو ليمنع اجتياز الدبابات السورية له . وتحرير منطقة « الدبورة » الاستراتيجية الهامة للوصول إلى عمق العدو وبحيرة طبريا . فتنعكس على صفحات الرواية تفاصيل عمليات القصف الهائل للمدافع الثقيلة وإقامة الجسور على الخندق العميق الطويل ، واختراق الساتر الترابى – فى أعمـال قريبة من عمليات العبور فى الجبهة الجنوبية واجتياز قناة السويس والساتر الترابى على الضفة الشرقية للقناة . وقد أشار إليها الروائى – إلى تقدم المشاة السوريين بالصواريخ المضادة للدروع والدبابات ، واشتباك مئات الدبابات من الجانبين وتبادل الإصابات العنيفة فى معارك حقيقية ، وحرب حقيقية . ويتجاوز النصر فى الجولان مع نجاح العبور فى قناة السويس وتحطيم خط بارليف ، فتنعكس الرؤية القومية لحرب أكتوبر فى كلمـات حنا مينه على لسان النقيب « م » محدثا رجاله عن الانتصارات العربية فى حرب أكتوبر : « أنتم تعلمون أن عملية اقتحام المرصد وتحريره قد تمت ، وفى الوقت نفسه تقدمت قواتنا المدرعة فى جبهة الجولان حتى بلغت مشارف طبريا ، وجرى فى الجبهة الجنوبية ؛ عبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف . . »

وتصور الرواية الهجوم الإسرائيلى المضاد فى الجولان باتجاه سعسع ، وهجمات الطيران الإسرائيلى فى داخل سوريا ، وتصدى الطائرات السورية والصواريخ السورية لها . وتستكمل الرواية اللوحة البانورامية لحرب أكتوبر ، بتغطية معارك

الطيران السورية ، والحديث عن الطيارين السوريين وبطولاتهم وتاريخهم الشخصي والعسكرى ، وعن أهمية معارك حرب أكتوبر فى كشف تكافؤ القوى العسكرية وإمكانيات المواجهة بدون أوهام .

كذلك تقدم الرواية تسجيلا أمينا للهجوم الإسرائيلى المضاد على المرصد ومعركة استرداد المرصد ، وهى معركة بالغة العنف تحدّث عنها هرتزوج فى كتابه عن « حرب يوم الغفران » واعترف بضخامة الخسائر الإسرائيلية فيها قائلا : « وأزيح السوريون عن مواقعهم . وفى الساعة العاشرة من ٢٢ تشرين أول (أكتوبر) سيطر جيش إسرائيل على جبل الشيخ . وقد كلف هذا اللواء جولانى (الإسرائيلى) ٥١ قتيلا و ١٠٠ جريح » . ويحلل الروائى نجاح الهجوم الإسرائيلى المضاد بأن موقع المرصد صار فى مؤخرة القوات المتحاربة ، وانشغال القوات السورية فى معارك مواجهة الهجمات والاختراقات الإسرائيلية على الجبهة كلها .

ويصف الروائى الهجوم الإسرائيلى بواقعية ويعترف بالأخطاء التى ساعدت على نجاحه قائلا : ضرب النقيب «م» رأسه بقبضته حنقا ، إذ اكتشف أنهم ركزوا خطأ على الطرق المعروفة فى الجبل ، حسبوا أن الإسرائيليين سيأتون من واحد منها ، فبثوا الألغام ، وأقاموا التحصينات ، وها هو العدو يأتى للهجوم من طرق أخرى ، غير معبدة ، على ثلاثة محاور : مجدل شمس ، التلفريك ، قلعة النمرود ، وتوقفت آلياته بعيدا ظنًّا من العدو أن المنطقة خالية بعد القصف المركز طوال يومين . ونظرا لافتقار الوحدة السورية إلى المدفعية الثقيلة ، فقد قاتلت بما فى حوزتها من أسلحة خفيفة ، من قنابل يدوية ورشاشات .. ولم يلبث الهجوم الإسرائيلى الكبير أن تقدم نحو قوة المرصد السورية المحدودة . وتصف الرواية استبسال الوحدة السورية القليلة العدد والعدّة فى صدّ الهجوم الإسرائيلى برغم عدم التكافؤ بين الجانبين ، وكيف أنّ أحدا من السوريين لم يتراجع ، بل قاتلوا حتى النهاية فى معارك عنيفة بالسلاح

الأبيض ، حتى نفذ كلّ سلاحهم فتمّ انسحابهم « تحت ستار الليل هابطين الجبل من سفحه الآخر . جهة لبنان » . وتقول الرواية : « احتل العدو المرصد ثانية ؟ بلى ! هذا ما سيعرفونه . غير أن الذى سيجهلونه أن هذا العدو دفع الثمن غاليا وهذا ما يجب أن يقولوه هم . وأن يعرفه الناس . ليعرفوا أن وجه الحرب قد تغيّر .. » .

أمّا قائد الوحدة الجريح النقيب « م » فلم يبتئس ولم ييأس لنهاية الحرب هذه المرة ؛ لأنه قاتل وحارب حربًا حقيقية وقال فى نفسه : أنا تعب حزين . ولكنى لست يائسا . لدّى مادّة للاحتجاج . ولكن ليس لدى مادة لليأس . أعود من المعركة وأنا أنزف . لقد قاتلْت . وهذا الجرح شاهدى ووسامى .. » ولم يخجل النقيب « م » من مواجهة نفسه فى المرآة . كما رأيناه فى مستهل الرواية يخجل من رؤية وجهه فى المرآة بعد هزيمة يونيو . بل اختتم الروائى حنامينه روايته « المرصد » بأن البطل العربى « لم يخجل هذه المرة . من رؤية وجهه فى المرآة . لحيته فقط كانت طويلة » . وبهذه الرؤية الواقعية والرمزية يضع حنامينه حرب أكتوبر فى موضعها الحقيق . كحرب حقيقية عنيفة صنعها شهداؤنا وقاتل فيها رجالنا بشراسة وعنف وعلمية ؛ لذا يجب أن تسجل وأن تبقى لكل الأجيال العربية ؛ لأنها تجسيد لقدرة أمتنا العربية على الحشد والفعل والحرب والقتال والنضال والبذل والعطاء . وهى طاقات يمكن أن تنمّى وتصعّد وتستوعب إمكانيات الأمة العربية والإنسان العربى . وهذا هو المنظور الذى تناولت من خلاله الرواية العربية الحديثة حرب أكتوبر .

حرب أكتوبر فى المسرح المصرى

الآن ، وقد مرت ثمانية أعوام على انتهاء معارك حرب أكتوبر ، يحق لنا أن نتساءل ، أين مسرح أكتوبر ؟ وكيف انعكست حرب أكتوبر فى المسرح المصرى ؟ هذا ما تحاول هذه الدراسة أن تجيب عنه بمتابعتها لثلاثة نماذج من مسرحيات أكتوبر فى المسرح المصرى ، الذى تصدر الإنتاج المسرحى العربى ، كما وكيفا فى التعبير عن حرب أكتوبر . المسرحيات الثلاث هى : « عملية نوح » لعلى سالم (١٩٧٤) ، « رسول من قرية تميرة للاستفهام عن مسألة الحرب والسلام » لمحمود دياب (١٩٧٥) ، و « العبور » لفؤاد دواره (١٩٧٦) .

فى مسرحية « عملية نوح » ، المكونة من ثلاثة فصول وثمانية مشاهد . يقدم على سالم رؤيته لحرب أكتوبر من خلال بناء مركب يمزج بين المأساة والملهاة وبين الواقع والخيال ويجسد فكره فى شخصياته ومواقفه وأحداثه الواقعية والمتخيلة ،

ليصور العبور كحلّ حتمى وحيد لإنقاذ مصر من الهزيمة والغرق والتفكك والانحلال والانهيار . ولإعادة بناء مصر الجديدة « مصر نظيفة .. مصر الحرية والديمقراطية والكبرياء » . ويعكس الحوار التالى ، بين « توحيد » انموذج المثقف المصرى ود . « فاطمة » أستاذة العلوم . رؤية المسرحية للعبور :

توحيد : أيوه يا مدام .. مطلوب من كل سكان المحافظة إنهم يمشوا على رجليهم ١٢٠ كيلو .. مائة وعشرين كيلو .. ويعدوا قناة السويس بمايه أو من غير مايه .. حانغرق لو استنينا هنا ..

فاطمة : حتحصل معركة .

توحيد : مش حانخسر فيها كثير ..

فاطمة : .. كل الناس .. ؟

توحيد : كل الناس .. ؟

فاطمة : الرجالة .. والستات .. والأطفال ..

توحيد : أيوه .. يبلمهم انفعال واحد .. قدامهم هدف واحد واضح .. محدد .. مسيرة شايلة مواد البناء .. (ص ٥٦ و ٥٧) .

فمصر الهزيمة فى المسرحية مهددة بطوفان يغرقها . ويبدع الفنان على سالم حدثه الرئيسى ليجسد من خلاله رؤيته الفكرية للهزيمة . أسبابها وتداعياتها وطرق الخلاص منها . الحدث الرئيسى الذى تتمحور حوله المسرحية هو الخطر المحدق بمصر والذى يهددها بالغرق ، من خلال زمز بسيط شفاف عن حدوث انفجارات تحدث تشققات فى قاع البحر وتتحول إلى أخدود صغير يأكل شواطئ الدلتا ويأخذ فى الاتساع مهددا مصر كلها بالغرق . تلك القضية المحورية تجسدها شخصيات المسرحية ومواقفها وأحداثها بذكاء وإيحاء ويجعل على سالم أحداث مسرحيته وحوارياتها تتصاعد من بين صفوف المشاهدين لإشراكهم وإحداث التفاعل بينهم

وبين الممثلين ، وهو يشد جمهوره عن طريق الحوار الساخر ويمزج فى سخريته المرة المأساة بالملهاة فى نوع من الكوميديا السوداء يثير عقل المتفرج ويجذبه إلى التواجد والتفاعل مع شخصيات المسرحية وإيحاءاتها . ويعبر « نوح » . بطل المسرحية . عن أسلوب على سالم الساخر فى المزج بين المأساة والملهاة قائلا : « .. أنا سليم جدا .. متمالك نفسى تماما .. وفاهم جدا .. وهى دى الكارثة .. أنا باهرج بس .. طلع فى مخى إنى أهرج شوية .. عاوز أزعق وأقول أى حاجة .. عاوز أهبّل يا ناس .. هو ده علاجى الوحيد .. إنى أهبل .. أنا آخذ كل حاجة جدا .. والجد حايقتلنى .. » (ص ٨٤) .

ويطور الكاتب رؤيته ومواقفه فى قضيته المحورية عبر حدث يخلقه باسم « عملية نوح » ويبلور من خلاله رؤيته الكوميدية السوداء للهزيمة وطرق الخروج منها . وتصوّر الشخصيات ، وهى أنماط فكرية ونماذج اجتماعية ، تجسد فكر المؤلف ورؤيته : لذا جاءت كنماذج للإسقاط السياسى والشخصيات الورقية الجامدة عند مواقفها ، لا تكاد تنمو أو تتطور أو تتصرف بحريتها وحيويتها كشخصيات فردية حية من لحم ودم . وتسرد الشخصيات رؤيتها للهزيمة والأحداث التالية والمقالات المعروفة التى صورت استحالة الحرب والعبور :

.. : أكيد فيه حرب ..

(الحديث التالى يدور بين المسئول جـ والمسئول د وبجوارهما يجلس توحيد وهو شاب وسيم فى الثلاثينات) .

جـ : اللى يقرأ المقال بتاع امبارح .. يتأكد إن مفيش حرب .

د : آه يا أخى .. قريته . ده وصف يؤكد إن التحصينات اللى عاملينها . ولا الشياطين تعرف تقتحمها ..

توحيد : الشياطين جايز ما تعرفش .. فى الحالة دى يمكن البنى آدمين تعرف .

جـ : يا ابنى العبور خسايره فظيعة ..

توحيد : ومكاسبه .. ؟ حضرتك فكرت فى مكاسبه .. ؟ .

د : يعنى ممكن يحصل مذبحة للجيش المصرى ..

توحيد : أحسن من المذبحة اللى حاتحصل للشعب كله .. لو ظل الموقف على ما هو عليه ..

د : المسألة مش مسألة شعارات . مش ألفاظ منمقة . (ص ١٤) .

ويمزج على سالم الواقع بالأسطورة باستخدامه قصة سيدنا نوح وطريقته فى الخلاص من الطوفان . عن طريق تجميع النماذج الممثلة للعقل المصرى والخبرة المصرية وحشد أهل الصفوة فى ثلاث سفن كبيرة . على أن تتقدمهم إلى البحر سفينة نوح للأبحاث لتنذر السفن الثلاث باقتراب الطوفان . فتخرج بهم من مصر المهددة كلها بالغرق حتما تحت مياه الطوفان ولا يمكن إنقاذها . بل يجرى إنقاذ هؤلاء الصفوة أو « روح مصر » كما يسميهم « نوح » فى المسرحية . ثم تتم إعادتهم إلى الصحراء المصرية ليبنوا مصر الجديدة . ويطلب من المسئولين المجتمعين فى المجلس الشعبى لمحافظة القاهرة أو مجلس محافظة مصر – كما يسميه الكاتب ويرمز به للبيروقراطية المصرية – البدء فى تطبيق الخطة وحصر كل الكفاءات الفكرية والفنية والمهنية . وأن تسير الخطة فى سرية وتكتم . حتى لا يشعر الشعب بالخطر الذى يهدده بالغرق : لأنه لا يمكن إنقاذه . فيكفى إنقاذ الصفوة لتعيش بهم مصر الجديدة ، بينما يظل الشعب مغمى عن حقيقة الانهيار أو الطوفان القادم لإغراقه ؟ ! هذه هى ذروة المأساة التى يقدمها على سالم ويرمز بها لحالة اللاحرب واللاسلم التى سيطرت على مصر إثر هزيمة يونيو .

ويرفض « توحيد » – أنموذج المثقف المصرى الواعى فى المسرحية – عملية نوح ويعترض على إنقاذ الصفوة وترك مصر تغرق . فمصر هى كل المصريين . ويطلب

إشراك الشعب فى الأمر لأن الخطر يهدد الجميع ويرفض الوصاية عليهم . ويعرض توحيد خطته المضادة لعملية نوح . فإذا بها خطة الحرب . بدلا من خطة نوح للهرب . وحول هذه الخطة التى تقضى بالاتجاه شرقا لعبور قناة السويس . يدور الحوار حول إمكانيات العبور وحول قوة ومناعة استحكامات العدو :

توحيد : عظمة أى شعب تنبع من قدرته على تحقيق أشياء تبدو خيالية .. ولكن أؤكد لكم أنها الخطة الوحيدة الواقعية والواجبة التنفيذ .. إحنا ليه نستنى لما نغرق .. إحنا نبدأ من دلوقت .. من اللحظة دى .. لماذا نتحرك غرب النيل .. ؟ .. لماذا لا نتحرك شرق النيل .. ؟ .. مش سكان القاهرة فقط .. سكان كل المدن .. المسافة بيننا وبين قناة السويس .. مائة وعشرين كيلو .. نمشيهم . وبعد ما نعدى قناة السويس .. نبدأ من جديد فى أرضنا .

(تتناثر التعليقات) .

... : ده بينادى بالحرب .

... : ده عاوزنا نروح فى داهية ..

... : رزل .. مش قلت لك ..

مدير الدفاع : ظروف المعركة حاليا مش مهيأة .. والحصون اللى العدو عاملها على القناة تجعل من الصعب .. بل من المستحيل فى الظروف الحالية ..

توحيد : (مقاطعا) .. أنا ما تكلمتش عن الحرب .. كمان ما بفهمش فيها . لكن بافهم فى الناس كويس لا قوة فى الوجود تستطيع الوقوف فى وجه شعب بأكمله الشعب كله بنسائه وأطفاله . يمشى على الأقدام فى اتجاه المنطقة دى (يشير لسيناء) . يحمل مواد البناء .. هى دى شرعية العملية يا جماعة . إن الشعب بيتحرك بعيدا عن الخطر من أرضه .. لأرضه . لا لشىء إلا لكى يبنى نفسه من جديد . وأؤكد لكم إننا فى الحالة دى . حانتحرك فى حماية أصحاب

الضمائر فى العالم كله .. لا شىء فى التاريخ جدير بالاحترام مثل شعب يناضل من أجل بقائه .. ومهما كانت الخسائر فى العملية دى . إلا أنها لن تكون فى حجم خسائر «عملية نوح» .. التى أشك أصلا فى إمكانية تنفيذها . (ص ٢٩ و ٣٠) .

وهذه هى ذاتها خطة حرب أكتوبر ، وهذه هى رؤية على سالم لمغزى حرب أكتوبر ومعنى العبور . ولكنه يعرض أيضا رؤية البيروقراطية السياسية التى ترفض الحرب وتصر على الهرب من مواجهة الصدام الحتمى فى الخطة الرمزية المضادة المسماة بعملية نوح . فنتحول مع تغير مشاهد الفصل الثانى . إلى متابعة تنفيذ عملية نوح . وانتقال الشخصيات من قاعة مجلس محافظة القاهرة إلى سطح مركب الأبحاث المكلفة بمتابعة خطر الطوفان والإنذار بقدومه حتى تتمكن السفن الثلاث الأخرى من حمل صفوة مصر وإنقاذهم من الغرق مع الشعب والأرض ، ويدور الحوار بين فاطمة الخبيرة بسفينة الأبحاث ونوح . ليكشف عزلة هذه النماذج من العلماء الغارقين فى أبحاثهم وأبراجهم العاجية وكتبهم وموسيقاهم . وينتقد عزل الناس عن اتخاذ القرار السياسى فى أدق شئونهم المصيرية . فالقيادة تفكر بالنيابة عن الناس ولا تشركهم فى صياغة قراراتها . وفاطمة تستمتع بالبحر والكتب والموسيقى وتطلب من نوح الكف عن أحاديث السياسة والناس . والحديث عن نفسه ، ويبدأ حديث الغزل .. وعندما يحضر الدكتور الجيولوجى يتفق مع نوح على حتمية وقوع الطوفان المغرق لمصر علميا وعمليا . ولكنه يستدرك باستثناء وحيد يحول دون وقوعه . يسميه بالمعجزة ولا يستطيع علميا أن يعول عليها أو ينتظرها . ويقصد بها معجزة الخلاص من الهزيمة . ويرى أستاذ الجيولوجيا فى عملية نوح فرصة مشرقة لبناء مصر بأيدى صفوة المصريين دون اكتراث لفناء المصريين وغرقهم مع كل التراث والأرض المصرية . ويعيد الباحثة فاطمة إلى جامعة

القاهرة . حيث يجرى عليها ما ينتظر المصريين جميعا من طوفان ودمار .

ويخلق المؤلف عبر شخصية « توحيد » مصر الفاضلة أو مصر الجديدة ، لا مصر التى يخطط نوح لبنائها بعد الطوفان فى يوتوبيا خيالية . فيطور الموقف ويصعد من عملية نوح . فنتابع فى تفصيل دقيق ، بالجمع بين الخيال والواقع . مخطط المدينة الجديدة ، وكشوف العلماء والخبراء . الخزائن الحديدية التى تُحفظ بها المستندات . ولكن الكشوف تأتى بالأسماء البيروقراطية القديمة . وحتى الانتخابات التى قصد بها نوح تغيير هؤلاء القادة القدامى جاءت بهم جميعا دون كل العناصر الصالحة للقيادة الجديدة ومصر الجديدة ، وبذلك تتكشف عملية نوح عن مأساة لا تحقق غرض صاحبها منها . ويزيد المؤلف من تعميق أوجه القصور فى المجتمع . وأخطرها ظاهرة هجرة العقول المثقفة والمدربة لتبنى فى الخارج بينما يبقى فى مصر البيروقراطيون . وعندما يصر نوح على الاستمرار فى عمليته لإنقاذ روح مصر وصفوتها يدفع المؤلف بمفاجأة اعتراف سكرتير المحافظة بإفشائه سرّ العملية وإذاعته خطر الطوفان الذى يهدد مصر كلها بالغرق . على أن « توحيد » يقرر أن الأمر ليس سرًّا وأن السكرتير لم يفش شيئا . لأن جماهير الشعب تعرف الحقيقة كلها . حقيقة الخطر الذى يهددهم بالفناء . وهنا يكتشف نوح أن خطته قد انهارت من أساسها لأنها مؤسسة على اختيار أفضل العناصر لبناء مصر الجديدة . إلى بناء مصر وتحريرها بأيدى الصفوة فى مواجهة خطة « توحيد » ببنائها باشتراك كل الشعب فى العبور والتحرير .

ويدور صراع بين القادة ونوح وتوحيد حول تسلم أوراق عملية نوح . وإذا بالإنذار يرد باقتراب الطوفان المغرق لمصر . ويطلب القادة من نوح آخر كشوف الأسماء المختارة لإنقاذهم ، ويرفض نوح بدء تنفيذ عمليته لأنه سينقذ نفس الأسماء التى تسببت فى كارثة مصر فيطاردونه محاولين انتزاع أوراق العملية منه . بينما يفر

نوح منهم إلى بيت عائلته الريفى الأصيل .

وفى المشهد الختامى يجلس نوح فى منزله الريفى يحرق أوراق عمليته ، ويسقط نوح فى حين يؤكد صحة موقف توحيد وخطته للعبور ، هكذا يخلص على سالم من تحليله للهزيمة وأسبابها وطرق الخلاص منها إلى حتمية خطة حرب أكتوبر وضرورة العبور بالشعب وليس بالصفوة لتحرير الأرض وبناء مصر الجديدة .

وتتميز مسرحية محمود دياب ، « رسول من قرية تميرة للاستفهام عن مسألة الحرب والسلام » بواقعية قوية الإيحاء ، وبمزج ماهر بين العام والخاص وبين المفهومين السياسى والاجتماعى لحرب أكتوبر ، وبالكوميديا الراقية النابعة من مواقف المسرحية وليس من ألفاظها ، وبلغة المسرحية الشاعرية الموحية التى تجمع بين الرمزية الشفافة والعذوبة . فقرية تميرة تعنى بلدنا ، والشخصيات أغلبها لفلاحين بسطاء وفقراء ولشباب القرية الأقوياء المشاركين فى الحرب ، والشخصية الممثلة للعدوان فى القرية هى شخصية الثرى « الحاج دسوقى » الذى ينتهز فرصة غياب ابن أخيه « فكرى » المحارب فى حرب أكتوبر لاغتصاب أرضه ، ويمتزج عدوان « الحاج دسوقى » على الأرض بترديده لإشاعات العدو عن سقوط مدينتى السويس والإسماعيلية ، فلا ينفصل العدوان الاجتماعى الداخلى عن العدوان السياسى الخارجى ، وتتجسد مشكلة الأرض الخاصة والعامة . أرض القرية وأرض الوطن ، فى أزمة العدوان الداخلى والخارجى . فيتداخل الخاص بالعام وينبع العام من الخاص ككل فن أصيل . كما تنفرد الشخصيات بسمات واقعية متميزة وحيّة وتعبر عن نفسها فى حوار المسرحية القصير الذكى وفى مواقفها المنفردة النابعة من تكوينها الخاص ، فهى شخصيات حية من لحم ودم وليست شخصيات ورقية أو نماذج وأنماط .

وعندما يبلغ « فكرى » سن الرشد يرفض الوصاية من عمه « الحاج دسوقى »

الذى يزوّر عقدًا ببيع الأرض ليغتصب بواسطته أرض « فكرى » وإخوته . ويتدخل أهل القرية فى إرجاء موضوع الأرض حتى يعود فكرى من الجيش ويرحل فكرى عن القرية تاركا موضوع الأرض لحين انتهاء مدة تجنيده . غير أن أخبار الحرب تفاجئ القرية وتصبح الحدث الرئيسى الذى تدور حوله أحاديث أهل القرية وتتمحور حوله كل اهتماماتهم ومواقفهم وقضاياهم . ويصور الحوار المتبادل بين شخصيات المسرحية كيف تلقت القرية خبر أول بيان عسكرى عن تحرك القوات المسلحة . من الراديو الترانزستور الوحيد فى القرية . وتدور الأحاديث بين الفلاحين عن مغزى الحرب والعبور وعن أبناء القرية الممثلين فى الجيوش والأسلحة المختلفة ، ويهلل الجميع فرحين بقيام الحرب . ويصور حوار المسرحية حرب أكتوبر كتحقيق للحلم المنتظر :

صوت : حرب يعنى حرب .

صوت : من زمان بنقول هنحارب .

صوت : كل شىء بأوان .

أبو عارف : دا شىء زى الحلم . (ص ٤٣)

ويشرح « أبو عارف » قارئ الصحف الوحيد فى القرية ! معنى العبور وتحطيم خط بارليف قائلا :

أبو عارف : خط برليف ده ملعوب عسكرى . إنما جامد قوى . شىء زى الجبل عملوه الصهاينة على طول المواجهة لأجل ما يمنع جيشنا يمر جبل متسقف دبابات ومدافع ورشاشات وكل أسباب الموت

الأم : (مروعة) وأولادنا راحوا هناك ؟ .

أبو عارف : وكسروه . مادام عبروا يبقوا كسروه

ويتحمس الجميع لسماع أخبار الحرب فيجمعون قروشهم لشراء « حجارة

للراديو » وتمزج المسرحية بين الخاص والعام عندما ترفض القرية راديو « الحاج دسوقى » لأنه لا يهتم إلا بمصلحته وقد يسمع راديو الأعداء ، وتفضل الراديو الصغير الوحيد الموجود مع أحد أبناء القرية . وتنشر الحرب الفرح لدى أهل القرية . ويتمنى الجميع المشاركة فى القتال ، وينير « أبو عارف » وعى الفلاحين بأهمية الحرب لتحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية قائلا مخاطبا الأم :

« إنتى عارفه هما بيحاربوا ليه .. هه .. بيحاربوا عشانك أنت وعشان سعدية وسطوحى ، وبرعى العيان المديون ده . عشان ما نقدر كلنا نعيش بنى آدمين . أمّال هيه حرب تحرير ليه .. تحرير أرض وبس . إوعى حد يكون فاكرها كده (سكتة) روحى يا أم فكرى ما تنشغليش واحمدى ربنا أن حنا عيشنا وشوفنا اليوم ده » (ص ٥٣) وتتجاور أحداث الحرب وأناشيد المعركة مع تفاعلات قضية العدوان على الأرض . فيصمم « حامد » الأخ الأصغر للمقاتل فكرى على حماية أرض الأسرة بالقوة وعدم تمكين العم دسوقى من انتهاز غياب « فكرى » فى الحرب لاغتصاب الأرض . وإتماما للمزج بين الخاص والعام . يستخدم الكاتب تعبيرات سياسية للتعبير عن وحدة موضوع الأرض . كاستعماله كلمات السياسة وعدم جدوى طريق الأمم المتحدة فى رد العدوان على الأرض . وتتعاقب أخبار الانتصارات العربية فى الحرب مع أحاديث الفلاحين عن قضية الأرض . ويدور الحديث عن جبهات القتال فى الجولان وفى سيناء . ويرسم « أبو عارف » خرائط المعركة على الأرض ليشرح للفلاحين مواقع القتال ويؤكد ضرورة التقاء الجيشين المصرى والسورى فى القدس .. فى حين يستمر الحاج دسوقى . رمز العدوان الداخلى ، فى تدبير العدوان على الأرض والاستيلاء عليها . كما يردد الإشاعات عن سقوط مدينتى السويس والإسماعيلية فيرفض الجميع الإشاعات والعدوان . ويتهمونه بالجاسوسية . ويطالبون بمعاقبته لمحاولته تخريب الروح المعنوية والجبهة

الداخلية - كما يرفضون التسليم بثغرة الدفرسوار لأن الحرب كرّ وفر وجيشنا لم يزل بكل قواه :

أبو عارف : وإيه يعنى الدفرسوار .. هيه حرب ولا مش حرب .

المجموعة : حرب طبعا ..

أبو عارف : مادام حرب تبقى زى البحر .. مد وجزر .

والعبرة بالخواتيم : (سكتة) قال خدوا السويس واسمعنية .. ودا كلام يخش آنهى عقل . (ص٧٦)

ويلخص « أبو عارف » القضية المحورية فى المسرحية . بمزجه بين حرب أكتوبر وقضية الأرض قائلا لدسوقى بأن أبناء مصر يحاربون ولايصح الغدر بهم . وإزاء إجماع أهل القرية يضطر « الحاج دسوقى » إلى إعلان تراجعه عن الاستيلاء على الزرع ويرجئ قضية ملكية الأرض إلى حين عودة « فكرى » المحارب من جبهة القتال . ومن ثم يعود الجميع إلى متابعة الموقف العسكرى بالرسم على أرض القرية . ويشرح « أبو عارف » الموقف فى الثغرة . ويؤكد أن التسلل الإسرائيلى فى قبضة جيوشنا ليبطل إشاعات العدو ويفحم مروجها الحاج دسوقى بأخبار استبسال رجالنا فى القتال شرقا وغربا واشتراك المقاومة الشّعبية وكل الشعب فى القتال ضد العدو . غير أن دسوقى يلمح بإمكانية تدخل الدول الكبرى لحماية مصالحها وإيقاف القتال . ويرفض الجميع هذه المزاعم التى تخرب الروح المعنوية ويستمعون إلى أناشيد المعركة من الردايو وحين يتوقف القتال تخيم الكآبة على الجميع لصحة توقعات الحاج دسوقى . ولكن خطابات الجنود من أبناء القرية تزيل الكآبة بما تحمله من أنباء صمودهم وانتصاراتهم وإسقاطهم لطائرات الأعداء .

غير أن أخبار الحرب والسلام تظل غامضة غير مفهومة لدى أهل القرية كما تغيب أخبار اثنين من أبنائها المقاتلين « فكرى وإبراهيم » . فتوفد القرية

« أبا عارف » لمعرفة كل الأخبار فى القاهرة حيث يعمل « الصادق عمر » أحد أبناء القرية صحفيا . ويشترك أهل القرية فى جمع تكاليف رحلة أبى عارف إلى القاهرة ويعيرونه بعض ملابسهم الجديدة . ويحاول « أبو عارف » أن يحصر أسئلة أهل القرية الكثيرة عن الحرب والسلام وأقوال الصحف والراديو وعن أمريكا والصين والسوفييت وعرب فلسطين . ولكن « أبا عارف » يفاجأ بغياب الصحفى « الصادق عمر » فى مهمة صحفية بالخارج . فيشرح الموضوع لموظف الاستعلامات ولصحفية بالجريدة موضحا أهميته للبلد كلها : « أصل الموضوع مايخصنيش لوحدى دا يخص بلد بحالها . « بلدنا اسمها تميرة » « لأجل ماتفهم الموضوع . الخصوللك فى كلمتين . من يوم ماربنا نصرنا وجيشنا عبر . واحنا ياجبهة داخلية – ما اقدرش أقوللك – أد إيه فرحتنا أنى واحد من الناس وانى باقرا تفاصيل العبور فى حرنالكم ده – وللعلم انى مابقراش غيره – وعنيه بتسح دموع من الفرحة . » (مستطردا بنفس الحماس) بلدنا اللى اسمها تميرة بعتانى رسول لقريبنا الأستاذ الصادق . علشان افهم منه شوية مسائل شغلانا وأرجع أفهمهم .. وأصل الحاج دسوقى . ودا راجل مبسوط حدانا وربنا موسعها عليه . بيقول كلام إحنا مش فاهمينه وكايدنا قوى .. وأصل احنا فى مسائل السياسة دى إيدك والأرض » « بلدنا بعتانى أفهم السياسة وارجع افهمهم . وانت طبعا عارف السياسة : الحرب ومجلس الأمن . ومشاوير السلام . وسلاح البترول . وأمريكا . ودول الأطلنطى يعنى من مجاميعه .. » (ص١١٥و ١١٦) وتجد الصحفية « سامية شاكر » فى شخصية الفلاح « أبى عارف » رسول القرية . موضوعا لتحقيق صحفى مثير عن « الفلاح والمعركة » وعبثا يحاول أبو عارف إفهامها بأنه يريد إجابات على أسئلته . إذ تضع الصحفية عنوان موضوعها « رسول من قرية تميرة للاستفهام عن مسألة الحرب والسلام . وهو عنوان المسرحية أيضا وتلتقط أجهزة الإعلام الفلاح

لتجعل منه مادة طريفة مثيرة لصفحاتها وبرامجها . وتتداخل مشاهد القاهرة مع مشاهد القرية . لنجد « سطوحى » الفلاح المعدم يهاجم « الحاج دسوقى » لترديده إشاعة سقوط مدينة السويس ، ويتهمه بالانهزامية . فيقول « دسوقى » إن الحرب قد انتهت وأنه سيستولى على الأرض ويلق بأحجاره على الزرع . ويصمم حامد على حماية أرضه بالقوة . فى حين يعود « أبو عارف » رسول القرية ليعلن لأهلها عن ضياعه فى القاهرة وتهرب المحرر السياسي للصحيفة منه ومن أسئلته ويذكر لهم أنه سرق : « بانكسار » ماملكتش ياعايشة .. ماملكتش .. من ساعة ما حطيت رجلى فى مصر وأنا زى اللى اتاخدت .. (ثم فى ألم) أنى كنت فاكر نفسى واعى .. لكن اتسرقت مادريتش بنفسى إلا وانا راكب العربية وراجع .. (سكته) ياعايشة .. إتسرقت .. » (ص ١٤٥)

وتختتم المسرحية بخبر استشهاد « فكرى » ابن القرية المقاتل وتصميم القرية على مواصلة النضال ومنع العدوان الداخلى والخارجى على الأرض والوطن .

« العبور » هى أول مسرحية يكتبها الناقد فؤاد دواره وكناقد . كتب فؤاد دواره ملخصا رؤية المسرحية لحرب أكتوبر وظروف كتابتها قائلا فى مقدمة المسرحية . إنه قصد بها تقديم شريحة لمرحلة ماقبل العبور بصراعاتها وسلبياتها وتمزقاتها وإيجابياتها » ، وأن العبور فى المسرحية إذن سياسى وحضارى ونفسى أكثر منه عسكرى .. وإن كانت العملية العسكرية هى الأساس المكين الذى تستند إليه عمليات العبور الأخرى . وقال دواره أيضا : إنه بدأ كتابة المسرحية « مع أول أيام المعركة » وأنهاها « قبل وقف إطلاق النار » أى أنه كتبها خلال اشتعال نيران حرب أكتوبر وبحماسة المشاركة بالقلم فى تلك الحرب العظيمة . لذا ظهرت الحماسة والخطابية السياسية المباشرة فى حوار المسرحية . وطالت بعض فقراته حتى تحولت إلى بيانات سياسية . وخاصة فى ثالث فصول المسرحية الذى يختتم بحدث

العبور . وفيه يسجل الكاتب رؤيته السياسية لمغزى العبور ورؤياه لما بعد العبور

أما المسرحية فتصور بدقة مرحلة ماقبل العبور . من حرب الاستنزاف وعبور القوات الخاصة إلى تصوير المجتمع المصرى وتوق الشعب والجيش للخلاص من الهزيمة وآثارها والعبور نحو التحرير والمجتمع الجديد . ويجسد فؤاد دواره رؤيته فى مواقف المسرحية وشخصياتها التى تنتمى أغلبيتها إلى سلك الجنود الرابضين على ضفة القناة والمشاركين فى أعمال حرب الاستنزاف . مع إبداعه لشخصية فذة موحية ترمز لمصر وتجمع بين الواقعية والرمزية والشاعرية والخيال هى شخصية « أم الخير » فهى فلاحة بسيطة تظهر وتختفى بين مواقع الجنود وتحنو عليهم وتطعمهم : وترنو ببصرها إلى الضفة الأخرى للقناة وسيناء المحتلة . وتردد أغنيات ومواويل من التراث الشعبى تعبر بها عن الضمير الجمعى لشعبنا وعن الوجدان الشعبى والأشواق الشعبية العارمة للعبور وتحرير الأرض وبناء مصر الجديدة . وزيادة فى قوة إيحاءاتها جعلها الكاتب تقوم بأدوار عدة شخصيات فى المسرحية . فهى تارة « فلاحة تصلح أما وزوجة وحبيبة » . وتارة أخرى تؤدى دور ممرضة . إضافة إلى أدوار متعددة لخطيبات وزوجات الجنود . أو كما قالت : أنا أم الخير وخضرة وإيزيس .. أنا آمنة وفاطمة وحتشبسوت .. أنا سكينة وتفيدة ونفرتيتى .. أنا منيرة وعلية وشجرة الدر .. أنا ناعسه ونبيله وكليوباترة .. » (ص١٢٥و١٢٦) فهى ضميرمصر وروحها المتواجدة فى كل مكان وكل موقع . وهى ترفض مغادرة ضفة القناة مع المهجرين . وتعبر عن توقها للعبور إلى الضفة الأخرى بهذه الكلمات الشعرية :

« آه ياليل .. والعاشج اللى يجول ياعين .
شعبان ورمضان وشهر العيد ومحرم
والنوم مخاصم سواد العين ومحرم
الشط الثانى بعيد بعيد .. جصاد عينى ومش طايلاه ومتحرم

الحيط عالى غالى .. والديب عليه بواب وله أنياب ومكشر
والبوم مالى السما ضلمة وسواده جوه جلبى معشر
والشط الثانى بعيد .. بعيد .. يامين يجيبه مين
آه ياليل . والعاشج اللى ابتلى يجول ياعين » (ص١٨)

ويقوم بناء المسرحية على المزج بين المشاهد والأماكن والأزمنة . ويساعد هذا المعمار الفنى على تقديم لوحة بانورامية شاملة لمصر كلها . فتتنقل المسرحية بين مختلف الأماكن من الريف المصرى والمدن المصرية إلى المواقع الأمامية للجنود ، لتصور التطور والتغير والتقدم فى الرؤية والمفاهيم والتكوين العسكرى للصراع مع العدو والتوق العارم لمحو صفحة الهزيمة وتجاوزها بالعبور ، فتصور المشاهد مشاعر الجنود القناصة الرابضين على ضفة القناة وتحرقهم شوقا للعبور والقتال ومهارتهم فى القنص . كما تصور أيضا تنمر قوى الثورة المضادة فى الريف ، ومحاولتها انتهاز انكسار الهزيمة للردة على ثورة يوليو ومكاسبها الشعبية والعودة إلى مجتمع الاستغلال والقهر السابق على ثورة يوليو ، ومحاولة بعض الباشوات القدامى استرداد الأرض من الفلاحين بالتزوير . ويأتى ذلك كله من خلال حوار بين والد الجندى « شمندى » وابنته . كما يدور حوار ثالث بين الجندى المثقف « أحمد » والعم « أيوب » حول ضرورة الوحدة العربية وتجمع الإمكانيات العربية لمواجهة العدوان وتحرير الأرض العربية . كما يعبر الحوار ، فى مشهد آخر بين الجنود المعاصرين لحرب يونيو . عن رفض كل دعاوى الهزيمة واليأس والحرب النفسية التى تحاول الحط من شأن الجندى المصرى ، ويؤكد الحوار مسئولية القيادة العسكرية عن الهزيمة ويضرب المثل بقوة الجندى المصرى الماثلة فى عمليات العبور وحرب الاستنزاف :

محمود : وليه تروح بعيد .. ماعندك معارك الاستنزاف سنة٦٩ و ٧٠ .. مش

العسكرى المصرى هو اللى كان يستخدم المدفعية والصواريخ ويعبر ويدمر لغاية إسرائيل ما قالت « جاى » .. حق برقبتى .. وقعدت أمريكا تضغط وتناور عشان توافق على وقف إطلاق النار ..(ص ٣٦) .

كما يتصور مشهد بناء قواعد الصواريخ وتوق الاستنزاف بتفاصيل واقعية دقيقة :

سعيد : هدف عملية الليلة بطارية صواريخ هوك أرض – جو . آدى موقعها على بعد حوالى ١٠ كيلو شرق القناة . . وجنبها على طول فيه موقع مدفعية ذاتية الحركة ١٥٥ ملليمترا . . ومخزن ذخيرة . . عايز كل واحد يحفض الخريطة دى فى مخه . . » (ص ٣٧) .

كما يصور مشهد بناء قواعد الصواريخ وتوق الكل للعبور والثأر والعودة إلى الأرض والزرع والعمل . وتتصاعد هذه المشاهد بالموقف وتأتى كمبرر موضوعى وفنى لأحداث العبور الكبير فى حرب أكتوبر .

محمود : حنعمل ايه .. ضرورة الحرب ..

أيوب : بس الحال طول يابنى والفلاح منا مالوش غير أرضه وزرعه . . وهما الفلاحين حيكونوا أغلى منكو . . أهو كانوا بجعدوا فى غيطانهم يزرعوا ويجلعوا . . ووجت الغارة ييجو يستخبوا .. والا يدافعوا معاكو .

أحمد : بس الكلام ده لو كانوا مدربين ..

أيوب : ندربهم يافندى .. ده من يوم ماهاجر الفلاحين .. الأرض نشفت والخضرة ماتت . . البلد بجت زى الخرابة . . خربوا بيتنا . . إلهى ينتجم منهم ويخرب بيوتهم . . آنى صعبان عليه حال الكفر جوى .. كل ما أمشى فى الغيطان وأشوف الأرض ناشفة والزرع ميت بيتهيأ لى أنزل أعزج الأرض كلاتها . . لكن أجيب العافية منين . . ولو لجيت العافية أجيب الوقت منين .. أدينى بازرع أرضى وأرض ولدى عليوة . . لغاية ماربنا يشاء ويرجع أهل الكفر. لكن يابنى وجف

الحال طول ومابابين لوش آخر .

أحمد : عندك حق ياعم أيوب ... المسألة طولت فعلا .. لكن لازم لها آخر (ص ٤٧ و ٤٨) .

وتجسد مشاهد أخرى من المسرحية صعوبات الانتظار العام للحرب المنتظرة . من خلال الأزمات الخاصة بالشخصيات . كالزواج المؤجل بين نبيلة وأحمد المجند فى الجيش . ورؤية الجنود الإسرائيليين يستفزون المشاعر الوطنية باستحمامهم فى مياه قناة السويس . كما تصور مشاهد تالية معارك المدفعية وإسقاط الطائرات المعادية وبعض مبادرات الجنود للعبور فى عمليات انتحارية . وتتداخل مشاهد الاستعداد للعبور وعمليات الاستطلاع مع المشاهد المصورة لمظاهر الردة فى بعض مصانع القطاع العام . التى يديرها بعض ملاكها السابقين وفصلهم للعمال النقابيين . ويتجاور إصرار العامل « محمود » على مقاومة الردة والقهر والفصل مع استجابة « نبيلة » . خطيبة الجندى المثقف « أحمد » لدعوته إلى فتح فصول لمحو الأمية . وتتجمع فى المشاهد الختامية كل المشاعر والصورة والمعاناة والأشواق المختزنة . وتصل إلى الذروة عندما يحاول الجنود الإقدام على عمليتهم الانتحارية للعبور دون أوامر من القيادة . فتتدخل « أم الخير » وتحاول منعهم قائلة :

أم الخير : « باستنى اليوم اللى تعبروا فيه . مش عشان تموتوا وماتعملوش حاجة . وإنما تعبروا عشان تموّتوا العدو وتحرروا الأرض باستنى اليوم اللى تعبروا فيه الهزيمة وتداووا الكرامة المجروحة » (ص ١٢٦)

فتمثل « أم الخير » الضمير المصرى . وتحذر من التهور والاندفاع غير المخطط وغير المحسوب . وتأتى الأوامر بالاستعداد للعبور الكبير ويصور الحوار الختامى فى المسرحية فرحة الجنود بالعبور للثأر لشهدائنا وتحرير الأرض وإيقاف الردة والفساد وتحقيق التقدم الحضارى العربى والعدالة الاجتماعية واسترداد حقوق الشعب

الفلسطيني . وتختتم المسرحية بكلمـات « أم الخير » رمز مصر . إلى الرجال بالعبور من أجل الحرية والعدالة والحضارة .

أم الخير : اعبروا واضربوا ودمروا
اعبروا الهزيمة وهاتوا النصر
اعبروا الليل وطلعوا النهار
عشان الأرض والمصانع
عشان التاريخ والحضارة
عشان الحرية والكرامة

وبعد . ليست هذه المسرحيات الثلاث لعلى سالم ومحمود دياب وفؤاد دوارة . هي كل المسرحيات المعبرة عن حرب أكتوبر فى المسرح المصرى . ولكنها نماذج منتقاة لطرق وأساليب معالجة المسرح المصرى لحرب أكتوبر . وتوجد مسرحيات أخرى متعددة ، بعضها منشور وأكثرها لم يقدر له النشر . رغم فوزها فى المسابقات الثقافية .

ولعل الوقت قد حان لتجميعها ونشرها وتقديمها إلى الجماهير . من أجل تسجيل حرب أكتوبر وتمجيد شهدائنا وأبطالنا الذين شقوا بدمائهم وسواعدهم طريق المجد . وبثوا قيم الجدية والشجاعة .

المراجع والمصادر

أولا : كتب عامة عن حرب أكتوبر :

١ – د . أحمد محمد خليفة وآخرون ، حرب أكتوبر ، دراسات فى الجوانب الاجتماعية والسياسية . المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة . مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام القاهرة ١٩٧٤ .

٢ – الهيثم الأيوبى ، دروس الحرب الرابعة ، مركز الأبحاث الفلسطينية . بيروت ١٩٧٤ .

٣ – د . حامد عبد الله ربيع ، فلسفة الدعاية الإسرائيلية . مركز الأبحاث الفلسطينية . بيروت ١٩٧٠ .

٤ – لواء حسن البدرى وآخران ، حرب رمضان . الجولة العربية الإسرائيلية الرابعة أكتوبر ١٩٧٣ . الشركة المتحدة للنشر والتوزيع . القاهرة ١٩٧٤

٥ – محمد على العوينى وآخران . مقالات فى الدعاية الصهيونية وحرب أكتوبر . مركز الأبحاث الفلسطينية . القاهرة ١٩٧٤ .

٦ – هرتزوج . حايم . حرب يوم الغفران . ترجمة مجلة فلسطين المحتلة . بيروت ١٩٧٥ .

ثانيًا – كتب وأعمال أدبية :

١ – أوكونور . فرانك ، الصوت المنفرد . مقالات فى القصة القصيرة . الترجمة العربية للدكتور محمود الربيعى . دار الكاتب العربى . القاهرة ١٩٦٩ .

٢ – إدوارد حنا سعد وآخرون . العبور إلى المستقبل . من وحى ٦ أكتوبر . الهيئة المصرية للكتاب . القاهرة ١٩٧٥ .

٣ – إسماعيل ولى الدين . أيام من أكتوبر . كتابات معاصرة . القاهرة ١٩٧٤ .

٤ – جمال الغيطانى حكايات الغريب . دار مجلة الإذاعة والتليفزيون . القاهرة ١٩٧٦ .

٥ – جمال الغيطانى . الرفاعى . الهيئة المصرية للكتاب . القاهرة ١٩٧٧ .

٦ – حنامينه ود . نجاح العطار . أدب الحرب . وزارة الثقافة . دمشق ١٩٧٦ .

٧ – حنامينه ود . نجاح العطار . من يذكر تلك الأيام؟ وزارة الثقافة . دمشق ١٩٧٤ .

٨ – حنامينه . المرصد . دار الآداب . بيروت ١٩٨٠

٩ – حسن النجار الوقوف بامتداد الجسد على قصيدة الساعة الثانية . الهيئة المصرية للكتاب . القاهرة ١٩٧٧ .

١٠ – عبد السلام العجيلى . أزاهير تشرين المدماة . وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٧ .

١١ – عبد الفتاح رزق قصص الدم والرصاص . مطبوعات الجديد . القاهرة ١٩٧٤ .

١٢ – على سالم . عملية نوح دار الثقافة الجديدة القاهرة ١٩٧٤

١٣ – فؤاد دوارة . العبور الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٦

١٤ – فتحى سعيد . مصر لم تنم . مطبوعات الجديد . القاهرة ديسمبر ١٩٧٣ .

١٥ – فوزى خضر وآخرون . أغنية لسيناء . الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٥ .

١٦ – كوليت الخورى . العودة إلى القنيطرة . اتحاد الكتاب العرب . دمشق ١٩٧٧ .

١٧ – مبارك ربيع . رفقة السلاح والقمر . دار الثقافة . الدار البيضاء ١٩٧٦ .

١٨ – محمد مهران السيد . ثرثرة لاأعتذر عنها دار الموقف العربى . القاهرة ١٩٧٨ .

١٩ – محمد يوسف القعيد . فى الأسبوع سبعة أيام . الهيئة المصرية للكتاب . القاهرة ١٩٧٥ .

٢٠ – محمد يوسف القعيد . الحرب فى بر مصر . دار ابن رشد . بيروت ١٩٧٨ .

٢١ – محمود دياب . رسول من قرية تميرة للاستفهام عن الحرب والسلام دار الثقافة الجديدة القاهرة ١٩٧٥

٢٢ – د نعيم عطية ، حكايات الحب اليومية ، روايات الهلال ، يونيو ١٩٧٦

٢٣ – نصار عبد الله ، الجرح الذى أصبح سيفا ، مطبوعات مجلة الثقافة القاهرة ١٩٧٤ .

٢٤ – سعيد سالم ، عمالقة أكتوبر الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩ .

٢٥ – صلاح إبراهيم عبد السيد وعزيزة صادق ، أشعة الدفء الخريفية . الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ .

ثالثا – دوريات :

١ – الآداب ، شهرية لبنانية ، عدد ممتاز ، أدباؤنا فى المعركة بيروت ديسمبر ١٩٧٣ .

٢ – الهلال ، شهرية مصرية ، عدد تذكارى ، ٦ أكتوبر بعد ٣ سنوات ، القاهرة ١٩٧٦ .

٣ – الهلال الذهبي ، ٦ أكتوبر بعد ٤ سنوات . القاهرة ١٩٧٧ .

٤ – الثقافة ، شهرية مصرية ، عدد خاص أكتوبر العظيم ، القاهرة ١٩٧٤ .

٥ – المعرفة ، شهرية سورية ، عدد ممتاز ، حرب التحرير ، دمشق ١٩٧٣ ، وأعداد أخرى ١٩٧٤ و ١٩٧٥ .

٦ – الطليعة ، شهرية مصرية ، ١٩٧٣ و ١٩٧٤ .

٧ – القصة ، فصلية مصرية ، مارس ١٩٧٧ .

٨ – عالم الفكر ، فصلية كويتية ، المجلد الثالث ، العدد الثالث .

٩ – الطليعة الأدبية ، شهرية عراقية يونيو ١٩٧٦ .

١٠ – قضايا عربية ، شهرية لبنانية ، عدد خاص عن حرب أكتوبر ، أكتوبر ١٩٧٤

فهرس

الصفحة

الأدب العربى وحرب أكتوبر ٥

حرب أكتوبر فى القصة العربية القصيرة ٢٤

حرب أكتوبر فى الشعر العربى الحديث ٥٩

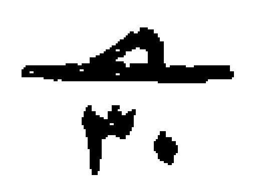
حرب أكتوبر فى الرواية العربية الحديثة ٩٢

حرب أكتوبر فى المسرح المصرى ١٤٥

رقم الإيداع		١٩٨٢/٤٤٩٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠٠٩٤-٣	ISBN

١/٨٢/٥٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)


٣٠

